


# شخصية الرسول ﷺ

## في كتاب «محمد: حياته وعقيدته»

### للمستشرق السويدي: تور أندريه

(١٣٠٢-١٣٦٦هـ/ ١٨٨٥-١٩٤٧م)

إعداد

**عبد الحق التركماني**

رئيس مركز البحوث الإسلامية في السويد

ابيض





# المقدمة

الحمد لله رب العـالمين، وأشـهد ألا إلـه إلا الله وحـده لا شريـك لـه، إلـه الأولين والآخرين، وأشهد أن محمدًا عبـده ورسـوله، المبعـوث رحمـة للعـالمين، صلى الله وسلَّم عليه وعلى إخوانه أنبياء الله ورسله أجمعين، وعلى آلـه وأصـحابه إلى يوم الدين.

**أما بعد:**

فإن مما لا يخفى أن كلَّ قومٍ يثق في علمائه ومثقفيه أكثر من ثقته بغـيرهم، لـيس فقط بدافع الشعور بالانتماء العَقِيـديِّ والجَمْعـي، بـل ـ أيـضًا ـ للتوافـق المعـرفي في منهجيـة البحـث والخطـاب واللغـة والتفكـير. لهـذا نجـدُ الكتـب المؤلفـة بـأقلام المستشرقين عن الإسـلام والمـسلمين هـي الأكثـر رواجًـا وانتـشارًا بـين القـراء في الغرب، ومهما حاول المسلمون التعريـف بـدينهم ونبـيِّهم ورسـالتهم؛ فـإن كتـبهم العلمية والدعوية تبقـى في إطـار التـداول المحـدود مـن خـلال المـساجد والمراكـز والمؤسسات الإسلامية، أما كتابات المستشرقين والبـاحثين الغـربيين فهـي المعتمـدة عنـدهم في الجامعـات والمؤسـسات العلميـة والمكتبـات العامـة، وإليهـا يرجـع

علية القوم وصناع القرار وأصحاب الفكر والثقافة، فلها التأثير الأكبر في رسم معالم التصور العام عن الإسلام في أذهان أولئك. ومن هنا فإنَّ التعرف على تلك الكتب مما يعين المسلمين على استكشاف جذور ذلك التصور، وما تحويه خلفياته من شبهات ومغالطات وأخطاء علمية. ولا شك أن توفر مثل هذه المعرفة يعين على جعل الخطاب الإسلامي الموجه إلى المثقف الأوربي أكثر استجابة لتصوراته ومفاهيمه.

وبحكم اهتمامي بالاستشراق السويدي؛ رأيت أن أشارك بجهد متواضع في هذا المجال من خلال هذا البحث عن (شخصية محمد ﷺ) في كتاب: (محمد: حياته وعقيدته) للمستشرق السويدي تور أندريه، فإنه يتميز بذلك التأثير الذي أشرت إليه آنفًا؛ فقد طبع سنة (١٩٣٠م) وبقي حيًّا رغم مضي هذه العقود الطويلة، فتتابعت طبعاته، وآخرها في سنة (٢٠٠٨)، وترجم إلى أشهر اللغات الأوربية.

ونظرًا لقصر البحث؛ اكتفيت بتمييز مباحثه بالعناوين الجانبية، وذكرت معلومات المصدر في أول موضع يذكر فيه، إلا كتب الحديث لأني ذكرت عند العزو إليها الأرقامَ المعتمدة في أكثر الطبعات شهرة، ومن الله تعالى العون والتوفيق.





**نبذة عن المؤلِّف تور أندريه[1]:**

ولد تـور يوليـوس إفـرايم أندريـه في ٩/ ٧/ ١٨٨٥م في أبرشـية (فينـا) في محافظـة (كلمَـر)، ومـات في مدينـة (لينـشوبينغ) في ٢٤/ ٢/ ١٩٤٧م، ودفـن في (أبسالا). حصل على البكالوريوس في الفلسفة ـ تخصص اللغات السامية وتـاريخ الآداب ـ من جامعة أبسالا: ١٩٠٦م، وحصل على ليـسانس في علـم اللاهـوت: ١٩١٢م، وعيِّن قسيسًا في (ديلسبو): ١٩١٣م، وحصل عـلى الـدكتوراه: ١٩١٧، وأصبح راعي كنيسة في (أبسالا القديمة): ١٩٢٤، وعمل أستاذًا في تاريخ الأديان بالمعهد العالي في ستوكهولم: ١٩٢٧-١٩٣٣، وعمل بعد ذلـك أسـتاذًا في جامعـة أبـسالا، إلى أن عـيِّن أسـقفًا في أبرشـية (لينـشوبينغ). ولمـا مـات أسـتاذه ناتـان سودربلوم؛ اختير عضوًا في الأكاديمية السويدية: ١٩٣٢، وفي أكاديميـة الآداب:

(١) ترجم له نجيب العقيقي في المستشرقون، دار المعـارف، القـاهرة: ١٩٨١م، ٣/ ٣٣، وهـذه بعض التراجم والدراسات عنه باللغة السويدية:

Georg Wallin: «Resor, forskningar och öden» 1936.
Svenska Dagbladets årsbok 1947, s. 255
Windengren, Geo: «Tor Andrae» 1947.
Svensén, Bo. De Aderton: «Svenska Akademiens ledamöter under 200 år». Norstedts 1992, s. 190
Otto Cantzler: «Prelater & Potentater», Noteria förlag 1995, ISBN 91-85694-82-7.
Christer Hedin «Tor Andrae och orientalismen» Swedish Science Press, Uppsala: 2005.

١٩٣٥. وخلال صيف ١٩٣٦ عُيِّن وزيرًا للكنائس ومستشارًا للحكومة.

نشأ تور أندريه في أحضان أسرة نصرانية محافظة، فقد كان والده راعي كنيسة، وظهر أثر ذلك على حياته حيث حافظ على العمل الكنسي منذ شبابه وحتى وفاته، رغم إمكانية استغنائه عن ذلك بوظائفه الأكاديمية، لكنَّه كان ـ كما ذكر العارفون به ـ متدينًّا، له ميل شديد إلى التصوف، يلاحظ ذلك في أخلاقه وسلوكه.

**اهتماماته العلمية ومؤلفاته:**

يمكن تلخيص الاهتمامات الدينية والعلمية والفكرية لتور أندريه في المحاور التالية:

١ - **النصرانية**: وذلك من خلال وظائفه الكنسية، وله بحوث وكتابات في هذا المجال، نشر بعضها في أعداد مختلفة من (الدورية التاريخية الكنسيَّة السنوية) **Kyrkohistorisk Årsskrift**، وله كتاب: (النصرانية: الدين الكامل؟) **Kristendomen den fullkomliga religionen?**، و(أنا أؤمن بالله) **Jag tror på Gud**، و(مجموع خطب ومواعظ) **Det gryr en morgon: predikningar och tal**.

٢ - **التحليل النفسي للدين**: أي البحث في الدين وشخصياته من خلال تتبع الجوانب النفسية ورصد أبعادها في العقائد والسلوكيات، وقد





أصدر أندريه بحوثًا عديدة في هذا المجال، منها: كتابه الكبير (علم النفس والتصوف) **Mystikens psykologi**: ١٩٢٦، و(التحليل النفسي والدين) **Psykanalys och religion**: ١٩٢٨.

٣- **التصوف**: لقد كان أندريه من مجذوبي التصوف، معجبًا بسير الصوفية، وصاحبه ذلك حتى آخر حياته، حيث عكف على تأليف كتابه: (في روض الرياحين) **I myrtenträdgården: studier i sufisk mystik**، وطبع بعد وفاته: ١٩٤٧، وهو دراسة متعمقة في التصوف الإسلامي من خلال الأخبار والحكايات الواردة في المراجع العربية[1]. وله دراسات عن التصوف بشكل عام، ومنها كتابه: (التصوف المعاصر) **Modern mystik**: ١٩٣٠.

٤- **الإسلام**: كان أندريه على معرفة جيدة بدين الإسلام، وقد تيسَّر له

(١) وترجمه د. عدنان عباس علي عن الترجمة الألمانية، وصدر عن دار الجمل في ألمانيا (٢٠٠٣)، بعنوان: (التصوف الإسلامي)، وقد أساء المترجم إساءة بالغة عندما عمد إلى إسقاط جزء كبير من الفصل الأول من الكتاب لاحتوائه على مقارنات بين الإسلام والنصرانية! والحقيقة أنَّ ما أهمل ترجمته هو أهم مباحث الكتاب حيث يحاول المؤلف أن يُرجع الإسلام والتصوف إلى أصول نصرانية.

ذلك من خلال إتقانه للغة العربية ورجوعه إلى المصادر الأصلية، على أن بحوثه في هذا المجال تركَّزت في ثلاثة جوانب: التصوف، وأثر النصرانية في الإسلام، والسيرة النبوية.

أما الجانب الأول فقد تقدم ذكر كتابه في التصوف.

أما الجانب الثاني: فقد حاول أندريه جاهدًا أن يرجع الإسلام إلى أصول نصرانية، زاعمًا أن النبيَّ ﷺ قد أخذ عن أحد النصارى ـ كما سيأتي شرحه ـ، وكتب في ذلك سلسلة من البحوث نشرت في (الدورية السنوية للتاريخ الكنسي) **Kyrkohistorisk Årsskrift**: ١٩٢٣-١٩٢٥م، ثم جمعت وترجمت إلى الفرنسية، ونالت اهتمامًا وانتشارًا واسعًا.

أما الجانب الثالث: فيرجع اهتمام أندريه به إلى وقت مبكر من نشاطه العلمي، حيث كان بحثه لشهادة الليسانس في اللاهوت (١٩١٢): حول حقيقة الوحي الذي ظهر للنبي ﷺ في غار حراء من خلال تحديد العلاقة بين سماعه لنداء جبريل، ورؤيته له في الأفق الأعلى. وقد خاض أندريه في هذه المسألة بالتحليل النفسي المبني على الظن والتخمين والدعاوى الباطلة، لينتهي إلى القول بأن محمدًا ﷺ سمع صوت إلهامه الداخلي، وتخيل ذلك صورةً في الأفق. أما أطروحته لنيل درجة الدكتوراه فكانت بعنوان: (شخصية محمد والاعتقاد فيه





عند المسلمين)، كتبها بالألمانية: ١٩١٧[1]، وهي ليست في السيرة، لكنها بحث مبتكر في مكانة النبي ﷺ عند المسلمين واعتقاداتهم في منزلته وعصمته وخصائصه وشمائله، وما يتعلق بذلك من التطور أو التغيُّر أو الاختلاف خلال العصور المتعاقبة، وعند الفرق المختلفة. يقول المستشرق يان يربه **Jan Hjärpe**: (إن هذا البحث يتعلق بفهم الدين وسيرورته وتطوره، وكيف تتغير المفاهيم عن مؤسس الدين بمضيِّ الوقت)[2]. وتوَّج أندريه اهتمامه بشخصية النبي ﷺ بكتابه الذي نحن بصدد التعريف به.

**قصة كتاب (محمد حياته وعقيدته) وطبعاته وترجماته:**

لما عمل تور أندريه أستاذًا في المعهد العالي لتاريخ الأديان في ستوكهولم (١٩٢٣-١٩٣٣) ألقى سلسلة من المحاضرات عن النبي ﷺ، ثم جمعها في هذا الكتاب: (محمد حياته وعقيدته) **Muhammed: hans liv och hans tro**،

---

(1) «Die Person Muhammeds in Lehre und Glauben seiner Gemeinde» Norstedt, Stockholm: 1918. 401 p.

(2) «Religionsvetenskap och teologi i ett 100-årsperspektiv - Nathan Söderblom, Tor Andrae och vår tid. » Föredrag av professor Jan Hjärpe vid Religionsvetenskapliga sällskapets 100-årsjubileum den 14 oktober 2006 , Stockholm.

ويان يربه أستاذ الدراسات الإسلامية بجامعة لوند جنوب السويد، ومن أشهر المستشرقين السويديين المعاصرين، ولد سنة (١٩٤٢).

وصدرت الطبعة الأولى منه في ستوكهولم: ١٩٣٠، في مجلد لطيف، في (٢٤٣) صفحة، من القطع المتوسط، وبحروف صغيرة، وتضمنت عددًا من التصاوير لشخص النبي الكريم ﷺ وللملائكة والبراق والصحابة أُخذت من الكتب واللوحات الفارسيَّة، وتمَّ إسقاط تلك الصور من الطبعة الحديثة: ٢٠٠٥.

وترجم الكتاب في وقت مبكر؛ فترجم إلى الإيطالية: ١٩٣٤ و١٩٨١، والإنكليزية: ١٩٣٦ و١٩٥٦ و١٩٦٠ و١٩٧١ و١٩٩٠، والألمانية: ١٩٣٢ و١٩٧٧ و٢٠٠٢، والفرنسية: ١٩٤٥ و١٩٨٤، والإسبانية: ١٩٣٣ و١٩٦٦ و١٩٨٠[1].

---

(١) وهذه بيانات تلك الترجمات حسب الترتيب السابق:

Maometto, la sua vita e la sua fede: Trad. Italiana di Francesco Gabrieli.
Mohammed: the man and his faith: transl: [from the German] by Theophil Menzel.
Mohammed: sein Leben und sein Glaube.
Mahomet, sa vie et sa doctrine: traduit de l'allemand par Jean Gaudefroy-Demombynes.
Mahoma, su vida y su religión: Traducción del alemán por José Gaos.

وليس للكتاب ترجمة عربية فيما علمت، وفي مجلة الأزهر، عدد (١١)، محرم: ١٣٨٧، ص: (١١٩-١٢٤)؛ مقال بعنوان: (ما يقال عن الإسلام: محمد الرجل وعقيدته. عرض للدكتور أحمد فؤاد الأهواني). ولم أقف عليه، ولا بد أنه اعتمد في تعريفه بالكتاب على الترجمة الإنكليزية أو الفرنسية، فقد كان الأهواني خبيرًا باللغات الأجنبية، متخصصًا في الفلسفة والتربية، عمل أستاذًا في جامعة الأزهر، ولد سنة (١٩٠٨)، وتوفي سنة (١٩٧٠) رحمه الله.

وكانت جميع تلك الترجمات عن الطبعة السويدية الأولى، بينما حصل ـ في وقت لاحق ـ تغيُّر مهم في مسيرة هذا الكتاب، وذلك عندما قام تلميذ المؤلِّف، وخلفه في جامعة أبسالا: (غيو ويدينغرين) **Geo Widengren**[1] بإخراج الكتاب في سنة (١٩٥٠) بطبعة (محدَّثة)، حيث أعمل قلمه في نص الكتاب ببعض الزيادة والحذف والتغيير، وبيَّن في مقدمته القصيرة لطبعته أن أهم أهداف عمله: (تخفيف بعض حدَّة التعبير لدى المؤلف)، ولهذا عمد إلى إسقاط خمسة أسطر من آخر الكتاب، وإبدالها بصفحتين من تأليفه، مؤكِّدًا على أن عمله لم يؤثِّر في الفكرة التي عرضها أندريه عن النبي ﷺ، وأنه لم يفعل إلا ما ظنَّ أن أندريه كان سيرضى به لو اطلع عليه، وقد انتشرت هذه الطبعة، فطبعت مرات كثيرة، أولها: طبعتان في سنة: ١٩٥٠، وآخرها طبعة فاخرة بإخراج جديد، وبمراجعة وتقديم المستشرق السويدي يان يربه **Jan Hjärpe**: ٢٠٠٥ و٢٠٠٨، ومع ذلك فقد ذكر يربه في مقدمته أنه ليس من المؤكد أن أندريه كان سيرضى بصنيع

---

(١) ولد في استوكهولم (١٩٠٧) ومات فيها (١٩٩٦)، يعدُّ من أخص تلاميذ تور أندريه وألف في ترجمته كتابًا، تخصص في الأديان الفارسية، وكتب فيها كثيرًا، من كتبه: (محمد: رسول الله وظهوره) بالانكليزية، أبسالا: ١٩٥٥؛ ولم يشتهر، وكتاب: (عالم الأديان) بالسويدية، ستوكهولم: ١٩٧١.

تلميـذه لـو قـدِّر لـه أن يطلـع عليـه، وذكـر لي المستـشرق كريـستوفر تـول **Chiristopher Toll** بـأنَّ ويـدينغرين قـد أسـاء إلى الكتـاب بعملـه[1]. لهـذا اعتمدتُ في هذا البحث على طبعة المؤلف الأولى.

جعل أندريه كتابه: (محمد حياته وعقيدته) في مقدمة قصيرة وسبعة فصول:

الأول: الجزيرة العربية في زمن محمد.

الثاني: من الطفولة وحتى الدعوة.

الثالث: الرسالة الدينية لمحمد.

الرابع: الوحي.

الخامس: الصراع مع قريش.

السادس: الحاكم في المدينة.

السابع والأخير: شخصية محمد.

وسنتطرق في بحثنا هذا إلى عرض وتحليل ومناقشة هذا الفصل.

وطريقة أندريه في التأليف أنه لا يضع عناوين جانبية لفصول الكتاب مهما طالت، بل يذكر موادها في سياق متناسق متصل، ولا يوثق اقتباساته بـذكر المصادر، رغم أنه رجع إلى أصولها العربيـة، ولعلـه فعـل ذلـك لأن المـادة التـي

(١) مقابلة شخصية في منزله بستوكهولم سنة ١٤٢٢هـ.





يتناولها مشهورة مبذولة، لكن تبقى الحاجة إلى التوثيق قائمة ليعرف القارئ مصادر ما يذكره على وجه التفصيل[1].

لقد اعتمد أندريه على المصادر المعتمدة عند المسلمين، ورجع إلى أصولها العربية، مثل كتب السنة كالصحيحين والسنن وغيرها، وكتب السيرة كسيرة ابن هشام، وطبقات ابن سعد وغيرهما، وهذا الاعتماد شرط للاقتراب من الحقيقة ثم الوصول إليها، خلافًا لمن اتجه من المستشرقين إلى التشكيك، بل إسقاط الاحتجاج بجميع مرويات السنة والسيرة. لهذا قال لي المستشرق يان ريتسو **Jan Retsö** ـ أستاذ اللغات السامية بجامعة غوطبورغ ـ: (إن كتاب أندريه لا قيمة له، لأنه يعتمد على المصادر الإسلامية التقليدية، وهي كتب ملفَّقة لا يمكن الاعتماد عليها، وتحتاج إلى نقد تاريخي حديث)[2]. فقلت له: إنني لا أخالفك أن جزئيات مرويات السنة وحوادث السيرة تحتاج إلى نقد وتمحيص، وهذا ما يقوم به علماء الحديث، لكن ألا ترى أن كتب الحديث والآثار والسير والتاريخ والتفسير والفقه وغيرها كثير ـ وهي بالآلاف ـ تكفي لإثبات المعالم العامة لدعوة النبي وأخلاقه وسلوكه بالعلم الضروري القطعي الذي لا سبيل إلى إنكاره؟!

---

(1) Hedin, Christer: «Tor Andrae och orientalismen», Swedish Science Press, Uppsala: 2005. s. 20.

(٢) مقابلة شخصية بمكتبه في جامعة غوطبورغ: ٢٤/ ٢/ ١٤٣١.

**أهمية الكتاب وما يتميَّز به:**

لم أُطل في التعريف بطبعات وترجمات الكتاب إلا للتنويه بأهمية الكتاب لدى المثقفين الأوربيين، وسعة انتشاره وتداوله، ولا يرجع هذا لقلة الكتب عن النبي ﷺ في اللغات الأوربية، وإنما لتميز هذا الكتاب بمنهج مبتكر في عرض السيرة النبوية وتحليل أحداثها، بأسلوب أدبي رفيع، وبأفكار متسلسلة مشوِّقة. وأيضًا: فإن المؤلف حاول ـ حسب وجهة نظره ـ أن يكون منصفًا في حكمه، بعيدًا عن التعصب والتحامل، فعرض صورةً عن النبي ﷺ تعدُّ بالنسبة إلى كثير من كتابات المستشرقين جيدة ومنصفة. ويمكن ملاحظة هذا بمقارنة ما كتبه بكتابات المستشرقين السويديين قبله، وهم ثلاثة: فريدريك كروسينستولب **J. F. S. Crusenstolpe**: ١٨٤٣، وتورنبيغ **C. J. Tornberg**: ١٨٧٤، وزيتِّشتين **K. V. Zetterstéen**: ١٩١٧؛ كلُّ واحد منهم في مقدمته لترجمته لمعاني القرآن الكريم. وباعتراف يان ييربه **Jan Hjärpe** فإن صورة النبي ﷺ في تلك التراجم: (صورة سلبيَّة ـ حتى عند زيتِّشتين ـ ومرتبطة إلى حدٍّ ما بموقفٍ متكبِّر، وهو ما يبدو مزعجًا للقراء المسلمين المعاصرين ـ بل ليس فقط لهؤلاء! ـ إنها تعطي انطباعًا أكثر سلبيَّة مما يعطيه الكتاب الدانمركي الكبير: (حياة محمد) لفرانتز بوهل **Frantz Buhl**(١٨٥٠-١٩٣٢م)، والذي صدر





سنة ١٩٠٣، وهو كتاب علميٌّ، مع العودة بدقة إلى المصادر، ولكن مع إعطاء انطباع سيِّء عن شخصية محمد. ومن الواضح أن الكتاب أعطى تأثيرًا مستمرًا في الدانمرك، وهذا ما يلاحظ من خلال الحوارات التي تقام هناك، رغم مضي أكثر من مئة سنة على صدور الكتاب). ثم قال يان ييربه: (كتاب أندريه مختلف. منهجه في النقد، ومقارناته، ومعرفته المتعمِّقة باستخدام مادة علم النفس الديني؛ أنتج صورة أخرى عن محمد غير تلك الصورة التي خيَّمت على الاستشراق وتاريخ الأديان في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين)[1].

هذه الشهادة من هذا المستشرق السويدي الكبير، الواسع الاطلاع؛ لها قيمتها، وقد سبقته إلى مثلها (سيغريد كاهلي) **Sigrid Kahle** في مقدمة ترجمتها لكتاب إدوارد سعيد: (الاستشراق) إلى السويدية: ١٩٩٣م، وقد ربط فيه مؤلفه الاستشراقَ بالاستعمار، مؤكدًا على أن الاستشراق في الغرب قد قدَّم تفسيرًا خاطئًا تمامًا عن الإسلام، وحاول تقديم تسويغ أخلاقي للاستعمار؛ فردَّت عليه كاهلي بذكر أسماء من تكلَّموا عن الإسلام: (بشكل ممتاز)؛ فذكرت أربعة، اثنان منهم سويديان: نيبيرغ **H. S. Nyberg** (١٨٨٩-١٩٧٤)، وتور أندريه.

(1) Jan Hjärpe «Förord till nya upplagan: Tor Andrae och Muhammedboken» i «Muhammed: hans liv och hans tro», Hjalmarson & Högberg, Stockholm: 2008. s. 8.

هذه الإشارة في مقدمة كاهلي أوحت إلى المستشرق السويدي (كريستر هيدين) ـ أستاذ الأديان بجامعة ستوكهولم حاليًّا ـ فكرةَ معارضة كتاب إدوارد سعيد بنموذج أندريه السويدي، فألف في ذلك كتابه القيِّم: (تور أندريه والاستشراق) **Tor Andrae och orientalismen** (أبسالا: ٢٠٠٥)، طارحًا في صدره السؤال التالي: (هل البحث الإسلامي السويدي كان أيضًا بدافع استعماري؟ وهل هو متأثر برؤية الاستشراق إلى الإسلام والمسلمين؟) ثم قال: (المراد من هذا الكتاب إلقاء الضوء على هذه المسألة من خلال دراسةٍ عن البروفسور الأسبق في جامعة أبسالا: تور أندريه). ثم بيَّن أنه سيركِّز في دراسته على كتاب: (محمد حياته وعقيدته)، ثم بدأ باستعراض مادة الكتاب، محاولاً إبراز ما يتعلق بالسؤال الذي طرحه، ليتحقق مما إذا كان أندريه مستشرقًا ـ بالمعنى الذي طرحه إدوارد سعيد ـ أم كان باحثًا متجردًا منصفًا؟ وليس بإمكاني في هذا البحث القصير أن أتطرق إلى تفاصيل ما ذكره هيدين في كتابه، لكنني سأحاول الاستفادة منه في بيان المآخذ على أندريه، المهم هنا أن هيدين قد خَلُص إلى أن أندريه كان باحثًا منصفًا وإن ظهرت في ثنايا كتابه النزعة الاستشراقية.

لعلنا نكون أكثر تقديرًا لعمل أندريه إذا استحضرنا أنه تربَّى في أحضان الكنيسة، وكان لأستاذه وموجِّهه: ناتان سودربلوم **Nathan Söderblom**





(١٨٦٦-١٩٣١م) أكبر الأثر في بناء شخصيته العلمية والفكرية، وكان سودربلوم مستشرقًا متخصصًا في الأديان الفارسية، ومن علماء اللاهوت والفلسفة، وعُيِّن رئيسًا لأساقفة الكنيسة السويدية، وحصل على جائزة نوبل للسَّلام لمساعيه في جمع كلمة الكنائس النصرانية في العالم. لقد تأثر أندريه بأستاذه هذا، خاصة في مجال التحليل النفسي للأديان الذي كان موضع اهتمام سودربلوم، ومع ذلك لم يظهر عليه كبير تأثُّر بالموقف المتعصب لسودربلوم ضد الإسلام، لقد كان له موقف كريم ومتسامح تجاه الأديان الأخرى؛ إلا الإسلام، الذي خصَّه بنظرة سيِّئة تجاهه[١]. لهذا يُفهم من بعض انتقادات أندريه لظاهرة التعصب ضد الإسلام؛ أنه يعرِّض بأستاذه هذا ويردُّ عليه[٢].

فإذا كان هذا موقف رئيس الكنيسة السويدية؛ فإمكاننا أن ندرك التوجه العام الذي لم يكن ليقبل أيَّ رأي متسامح ومنصف في الحديث عن الإسلام ونبيِّه ﷺ، لهذا كان أندريه يجد معارضةً مباشرةً، وسجَّل في كتابه (عالم الغيب) مثالاً لذلك، فقال: (تلقيتُ مرةً ـ بعد محاضرة لي عن الإسلام ـ رسالةً مثيرةً

---

(١) ذكر هذا المستشرق كريستر هيدين في بحثه: (آراء ناتان سودربلوم حول الإسلام).

Hedin, Christer: «Nathan Söderbloms uppfattningar om Islam» i Tidskrift för mellanöstern studier nr 1, 1997. S. 32-62.

(2) Hedin, Christer: «Tor Andrae och orientalismen» s. 52.

للإزعاج من شيخٍ منصِّرٍ، يخبرني بأنه شعر بالإهانة حتَّى أعماقه عندما استمع لوصف الثناء والمديح للدين الذي تعرف عليه ـ خلال ثلاثين سنة ـ عن قرب، ووجد نقائصه الروحية والأخلاقية صارخةً حتى عنان السماء). وأجابه أندريه بأنه يوافق على أن بعض المسلمين يقدم صورة مرعبة عن الإسلام، لكن النصارى يمكن أن يجعلوا أنفسهم مدانين بأفعال مثيرة للكراهية، وفيهم أيضًا مَن (نقائصه الروحية والأخلاقية صارخةً حتى عنان السماء)، وقال أندريه: (إنه بإمكاني أن أحكم على النصرانية ـ بعد ثلاثين سنة من الخبرة الشخصية ـ من خلال فَلَّاحي صِقليَّة، أو الوعاظ السود الأمريكيين)[1].

إن ذلك الانزعاج من منهج أندريه في الحديث عن نبي الإسلام لم يقتصر على (شيخ منصر) في السويد، بل أخذ طابعًا عالميًّا، فما أن ظهرت الترجمة الإنكليزية من كتاب: (محمد حياته وعقيدته) سنة (١٩٣٦م)؛ حتى سارع المنصِّر

(1) Tor Andrae «Det osynligas värld» J.A. Lindblads förlag, Uppsala: 1934. S. 134.

فلاحو صقلية من الكاثوليك، وكانوا يعتقدون في قبور القديسين، وأن أثرًا من رفاتهم يشفي المرضى.

أما الوعاظ السود: فكانوا معروفين بالخطب الحماسية والتحذير الشديد من المعاصي بطريقة ساذجة.





الأمريكي الحاقد زويمر **S. M. Zwemer** (١٨٦٧-١٩٥٢) إلى كتابة مقال في مجلته: (العالم الإسلامي) بعنوان: (محمدُ تور أندريه)؛ حاول فيه أن يقتبس كلَّ الشبهات التي أوردها أندريه ضد النبي ﷺ ويركِّز عليها، وسخر من أجوبة أندريه عنها خاصة جوابه حول تعدد زوجاته ﷺ، وتنويهه بمنهج الإسلام في تنظيم الزواج والأسرة واحترام المرأة...؛ خاتمًا مقاله بقوله: (سيرة ابن هشام القديمة والمحفوظة تحدثنا بالكثير عن محمد؛ أن نقبل من غير ارتياب كلَّ ظلال الصورة المرسومة من قبل الفنان المثقَّف في أبسالا)[1]!

لهذا كله؛ يمكننا أن نعدَّ كتاب أندريه ضمن الكتب المعتدلة والمنصفة نسبيًّا في الحديث عن النبي ﷺ، رغم وجود جملة من الأخطاء المنهجية والتفصيلة ـ سنشير إلى بعضها لاحقًا ـ. والرجل لم يقُده بحثه إلى الإيمان بالدين الحق، ولا شكَّ أن عدم الإيمان هو الذي دفع أندريه للوقوع في شبهات ومغالطات؛ كانت السلامة منها لمثله يسيرةً لو أنه خضع لنداء الفطرة والعقل ودلائل النبوة وحقائق التاريخ.

**الجوانب الجيدة في بحث أندريه حول شخصية الرسول ﷺ:**

تُرى هل يوجد في كلام أندريه ما يمكن حقًّا أن يشعر بعض المنصرين بالإهانة، ويثير غضب شيخهم الأكبر زويمر؟ نعم؛ يوجد الكثير من العبارات

(1) S. M. Zwemer: «Tor Andrae´s mohammed» in «The Moslem World» vol. xxvi, No. 3, July 1936, p. 218-221.

التي فيها قدر كبير من الإنصاف والعدل، بل المدح والثناء، ويمكن للقارئ أن يستشعر من خلالها أن أندريه قد أعجب بشخصية محمد ﷺ بعد أن تعرف عليها من خلال المصادر الأصلية، لكنه استطاع أن يقاوم جاذبيتها وتأثيرها، وهو في ذلك من القلة الذين سيشير إليهم في بعض كلامه الآتي.

لقد سخط أولئك على أندريه لأنه ركَّز في كلامه على تقرير إخلاص النبي في دعوته، وصدقه مع نفسه ومع الناس، وعلى تعبده وتواضعه ومحاسبته لنفسه، وعلى أخلاقه واستقامته. لقد رفض أندريه الاحتقار والإهانة والافتراء والكذب والتشويه الذي أطلقته الكنيسة والكُتَّاب في العصور الوسطى، وذكر ـ في صدر كلامه في الفصل السابع: (شخصية محمد) ـ رأيَ دانتي أليغيري **Dante Alighieri** (١٢٩٥-١٣٢١م)، وهو شاعر وأديب إيطالي، اشتهر بكتابه: (الكوميديا الإلهية)، وهو في قسمين: الفردوس والجحيم، وقد ذكر نبينا الكريم ﷺ: (في الفقرة (٢٨) في (الجحيم) في مقدمة أولئك الأشرار الذين أحدثوا شقاقًا في الدين، والشيطان يقطعه نصفين من رأسه وحتى منتصف جسده. وجنايةُ محمد أنه أتى بدين باطل). ثم علق أندريه بقوله: (ادعاؤه منح الناس رسالة جديدة غير النصرانية لم يكن ليفهم ـ في العصور الوسطى ـ إلا أنه خداع أثيم. ففيما يتعلق بالجدل النصراني البسيط في ذلك الوقت؛ كان محمد ـ



وقبل كل شيء ـ متنبِّئًا كذَّابًا). وهذا ولوج جيد في الموضوع يكشف عن بعض تلك الصورة القاتمة الحاقدة التي كانت تنشرها الكنيسة والكتاب الأوربيون في العصور الوسطى عن الإسلام ورسوله ﷺ، ودانتي مثال واحد وليس هو بالمثال الوحيد. ثم ذكر أندريه عصر التنوير، وأنه: (امتلك معطيات أكثر عدالة لتقييم شخص محمد)، وعلَّل ذلك بقوله: (أولئك المفكرون يظهرون غالبًا تقديرًا ساذجًا للتعاليم الرائعة والفضائل عند واضعي القوانين القدامى ومؤسسي الأديان، ولموافقة العقل لدى تلك الأديان الغريبة عنهم؛ التي يُعلى شأنها على حساب النصرانية. هذا التقييم الجيد لتلك الأديان غير النصرانية يشمل الإسلام أيضًا). ومراده بهذا: أن ما أبداه عدد من مفكري عصر التنوير من التقدير والإنصاف للنبي ﷺ، ومن الثناء البالغ على شخصه وتعاليمه؛ إنما كان بدافع غير مباشر من صراعهم مع الكنيسة وسلطانها، فكان في الثناء على غير النصرانية من الأديان نكاية بالكنسية. وهذا صحيح إلى حدٍّ بعيد، لهذا نجد في عبارات أولئك الاهتمام بالجانب الإنساني والأخلاقي والحضاري في دعوة النبي ﷺ، مع التصريح بالكفر بالجانب العقيدي منها ـ كما سيأتي ـ. إن أندريه قد لاحظ الخلفية النفسية والفكرية التي انطلق منها الأوربيون في كتاباتهم عن النبي ﷺ في المرحلتين السابقتين، ولكن هل تجردوا عن تلك الخلفيات في

العصر الحديث؟ هذا ما سنجد بعض الجواب عليه إذا ما انتهينا من تحليلنا لبحث أندريه نفسه؛ إن شاء الله تعالى.

وضرب أندريه بعض الأمثلة من عصر التنوير، فذكر كلام جورج سيل **George Sale** (١٦٩٧م-١٧٣٦م)، وسافاري **Claude-Étienne Savary** (١٧٥٠-١٧٨٨م)، ودي بولانفيليي **Henri de Boulainvilliers** (١٦٥٨-١٧٢٢م)، وكارلايل **Thomas Carlyle** (١٧٩٥-١٨٨١م)، وكلام هؤلاء يتضمن ثناءً على شخصية النبي ﷺ باعتباره مصلحًا ومفكرًا وقائدًا عظيمًا، وهو يعبِّر عن عقلية مفكري عصر التنوير في تعظيم الإنسان والتنويه بأعماله وإنجازاته من حيث كونه إنسانًا بغض النظر عن العقيدة والدين. وذكر أندريه أيضًا أن بعض مفكري عصر التنوير ـ منهم: فولتير **Voltaire** (١٦٩٤-١٧٧٨م)، وديدروت **Diderot** (١٧١٣-١٧٨٤م)؛ رفضوا ذلك التقدير العالي لشخص النبي ﷺ، وطعنوا فيه، إلا أن فولتير: (اعترف في عمل متأخر له بعظمة محمد وعبقريته لكنَّه انتقد قسوته وعنفه، ورَأَى أن لا جديد في دينه سوى التركيز على أن محمدًّا رسول الله).

ثم شرع أندريه في عرض شخصيته ﷺ في ضوء نتائج دراساته وتحليلاته، وسأذكر هنا جملة من عباراته الجيدة في هذا المجال[1]:

(١) جميع ما سأذكره هنا من الفصل السابع والأخير: (شخصية محمد) من كتابه: (محمد حياته=




١ – قال أندريه ـ بعد دراسة نفسية مطولة ـ: (إنَّ إلهام محمد كان من الناحية النفسية أصيلاً ـ كما سبق تأكيده ـ؛ فمن الصعب تصوُّر أن شخصًا ما قد تمكَّن من الحصول على مثل هذه الثقة غير المحدودة، ويحدث تأثيرًا في محيطه؛ إذا لم يكن يملك الاعتقاد الآسر والمقنع لرسالته).

قلتُ: وهذا حقٌّ، وهو شاهد حال على صدق نبوته، يتأكَّد بثباته ورسوخه على مدى ثلاث وعشرين سنة من الآلام والشدائد والصعوبات والتغيُّرات، فلو كان الأمر إلهامًا مجردًا، أو تجربة ذاتية؛ لظهرت في دعوته وسلوكه آثار التردد والضعف والإنهاك والتغير والاضطراب. لكنَّه مكلَّف من عند ربِّه، وهو ﷻ يمده بالقوة والصبر والثبات.

٢ – وقال: (أخذ دعوته على أشد محامل الجد، لقد شعر بقلبه وهو يرتعش أمام سلطان يوم القيامة، وأدَّى وظيفته النبوية كاملة بتقوى وخوف: ﴿ **وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَـٰجِزِينَ** ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٧]. الله يجعل رقباء على رسوله من أمامه ومن خلفه حتى يتأكد أنه أدى الرسالة. لا يحتاج المرء أن يكون

---

=وعقيدته)، وهو بترجمتي عن الأصل السويدي الذي صدر في حياة المؤلف سنة (١٩٣٠) ص: ٢١٦-٢٣٩.

حسَّاسًا جدًّا لتلك النبرة الشخصية في وعظه الديني حتى يكتشف خطوات أولئك الرقباء الصَّارمين في كلماته الوعظية المؤثِّرة، وفي تعبيراته المؤثرة ـ عندما لا يراقب أحد موعظته ـ عن حزنه وألمه).

قلتُ: هذا كلام حسن عمومًا، لكن يحسن التنبيه هنا إلى أن من المآخذات على أندريه أنه يركِّز في مواضع متفرقة من كتابه على شدَّة خوف النبي ﷺ من يوم القيامة، وأن ذلك الخوف هو الذي سيطر على تفكيره ووجهه إلى حمل الرسالة بجدية بالغة. وهذا التركيز يعطي انطباعًا بإغفال جانب الحب والرجاء والغفران والرحمة. وقد تنبه كريستر هيدين إلى هذه النقطة؛ فذكر أن القرآن الكريم مليء بذكر رحمة الله ومغفرته ومحبته، لهذا فصنيع أندريه يجعل من السَّهل ـ كما قال هيدين ـ أن تُعرَّض صورة الإسلام للتحريف[1].

٣ – وقال: (امتنع محمد عن أي فعل يظهره كمعجز، ورفض قطعًا أي غلوٍّ في شخصه. إنه ليس سوى رجل من الرجال الآخرين، لا يعلم الغيب، ولا مدخل له في سلطان السماء، ولا يتحكم في قدر نفسه ولا في قدر الآخرين. في الحقيقة ترجع هذه الأقوال إلى العهد المكي، لكن لا يوجد شيء يمكن أن يشير إلى أن محمدًا حاول استغلال التعظيم الخرافي لشخصه الذي أظهره المؤمنون به

(1) Hedin, Christer: «Tor Andrae och orientalismen» s. 52.





في المدينة، لإظهار منزلته،...)

٤ – وقال: (على أي حال؛ هو لم يحاول بشكل كبير أن يقوي سلطته، ويضمن مكانته من خلال خوارق زائفة).

٥ – وقال أندريه: (العقيدة الإسلامية وصفت النبيَّ بأنه معصوم: أَنَّه بالتأكيد لم يرتكب أي ذنب متعمدًا، وبمنزلته العالية ارتكب خطأ ما يمكن أن يُعدَّ من قبيل الذنوب الصغيرة. إنَّها ميزة جذَّابة لمحمد أنه نفسه لم يكن يريد أن يتصرف كشخص له الكمال أو البراءة من الخطأ، بل اعترف دائمًا بوضوح بأنه مثل باقي البشر تكتنفه العيوب والأخطاء. وفقًا للسورة (٤٨) كان الفتح المبين ـ يعني: فتح مكة ـ علامةً على أن الله قد غفر للنبيِّ ذنوبَه المتقدمة والمتأخرة[١]. القصة المثيرة لعقد اللؤلؤ الذي أعطاه محمدٌ لعائشة، وتسبَّب ذلك في عدم استطاعته النَّوم في تلك الليلة[٢]؛ تُظهر جليًّا أنه ـ رغم وعيه لمنزلته العالية بكونه

---

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ١-٢].

(٢) لم أقف على هذه القصة التي يشير إليها، ولم يذكر أندريه مصدره على عادته في عدم توثيق نقولاته. وقد ورد ذكر عقد عائشة رضي الله عنها في قصة نزول آية التيمم، حيث فقدت عائشة عقدها، فأقام رسول الله ﷺ في التماسه، وأقام الناس معه، وكانوا في موضع لا ماء فيه،=

رسول الله ـ احتفظ بشيءٍ من براءةِ روحه، وهذا ما يؤكِّد إخلاصه الديني. حتَّى في دعوته لم يرَ نفسه بريئًا تمامًا من الأوهام والأخطاء، إنه يرى حفظه من الخيانة في الوظيفة التي كلف بها مجرد أثر رحمةٍ خاصَّة من الله تعالى (سورة: ١٧: ٧٣-٧٥)(١). مع أنبياء آخرين دعا محمد: ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٧]. وبشكل عامٍّ

=فأنزل الله آية التيمم، فتيمَّموا. لكن في القصَّة نفسها: أنَّ عائشة كانت استعارت ذلك العقد من أختها أسماء ﵄. وهي في صحيح البخاري (٣٣٤) و(٣٣٦)، وصحيح مسلم (٣٦٧). وورد ذكر عقدها ـ أيضًا ـ في قصة الإفك المشهورة، وقالت عائشة في وصفها أنها: (عِقْدٌ مِنْ جَزَعِ ظِفَارٍ)؛ كما في صحيح البخاري (٤٧٥٠)، وصحيح مسلم (٢٤٤٥). وظفار: موضع باليمن قرب صنعاء، ينسب إليه الجَزَع وهو خرَزٌ من ضربٍ من العقيق يعرف بخطوط متوازية مستديرة مختلفة الألوان. المعجم الوسيط (مادة: جزع). وفي كتاب المغازي لمحمد بن عمر بن واقد الواقدي (ت: ٢٠٧هـ)، تحقيق: مارسدن جونس، تصوير عالم الكتب بيروت، ٢/ ٤٢٨: أن عائشة قالت في خبر ذلك العقد: (وكانت أُمِّي أدخلتني به على رسول الله ﷺ). فيبقَى ما ذكره أندريه مشكلاً، ولعله قد دخل عليه خطأ أو سوء فهم عند الترجمة، والله أعلم.

(١) يشير إلى قوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾.





يمكن أن يقال: إن محمدًا احتفظ بالكثير من التواضع ومحاسبة النفس، مما يحقُّ للمرء أن ينتظره من رسولٍ لله قد تتوَّج عمله بما لا مثيل له من النجاح. يُظهر لنا وقوفه ضد إغراءات التفاخر، وحب الذات التي تدفع إليها منزلته؛ أنه كان شخصيةً بأخلاقٍ أصيلةٍ)[1].

٦ – وقال أيضًا: (ويتعلق أيضًا بمسألة الإخلاص الشخصي لمحمد مدى التزامه السلوكي بتلك المبادئ الدينية والأخلاقية التي كان يقررها. إنه لم يتردَّد في أن يجعل نفسه مثالاً للمؤمنين: **﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾** [الأحزاب: ٢١]، مثلما يتمنَّى بولس أن يكون النصارى مثله في كل شيء؛ عدا الأغلال[2]. هذا الوعي الأخلاقي الذاتي يتطلب في الأحوال كلِّها أن لا يكون هناك أي تناقض صارخ بين المثل الدينية والسلوك الشخصي عند محمد. الأخلاق الدينية التي دعا إليها كان لها إلى حد كبير منحًى زهديٌّ: إنَّ الدنيا ليست في حدِّ ذاتها شرًّا، ولكن من السهل أن

(١) لقد كان أندريه على اطلاع جيِّد بما في السيرة الشريفة من معالم تواضع النبي ﷺ وأدبه بين يدي ربِّه، وكل ذلك لا ينافي العصمة المتقررة في العقيدة الإسلامية، إذ العصمة في تحمل الرسالة وتبليغها، ومن كل ما يرجع إلى القدح فيها، فلا تقتضي الغلو في شخصه ﷺ.

(٢) العهد الجديد: رسالة بولس الرسول إلى أهل فيلبي: ٣/ ١٧.

تصبح فتنة تجعلنا ننسى الحياة القادمة. هل فهم محمد نفسه أن يأخذ حذره أم سقط في المدينة ـ أحيانًا كما يقال ـ ضحيَّة للإغراءات الدنيوية: السُّلطة والشَّرف والمتعة؟ المجاميع التراثية القديمة تعطينا غالبًا عن النبيِّ صورةَ الخاشع القانت الذي يُرى عليه أثر الجوع. عادةُ الأكل حتى الشبع ـ كما يقول أحد الكتاب ـ شيء جديد، لم يكن صالحو الأجيال السابقة يعرفونها. لقد قال النبي: «**ما ملأ آدميٌّ وعاءً شرًّا من بطنه**»[1]، وتصرَّف هو وفق ذلك: تحكي عائشة «**أنه لم يأكل قطُّ حتى الشِّبَع**»[2]، وأنه عندما كان يكون عند زوجاته لا يسألهم طعامًا، ولا يتشهاه عليهم، إن أطعموه أكل، وما أطعموه قبل، وما سقوه شرب[3]. عائلة

(١) أخرجه أحمد في المسند ٤/ ١٣٣، والترمذي في الجامع (٢٣٨٠)، وابن ماجه في السنن (٣٣٤٩) من حديث المقدام بن معدي كرب. وهو في صحيح الجامع الصغير للألباني (٥٦٧٤).

(٢) هذا غير صحيح على إطلاقه، فلفظ حديث عائشة قالت: «**ما شبع آل محمد ﷺ منذ قدم المدينة من طعام البُرِّ ثلاث ليال تباعًا حتى قبض**». أخرجه البخاري في الصحيح (٥٤١٦)، وأخرجه مسلم في الصحيح (٢٩٧٠)، بلفظ: «**لقد مات رسول الله ﷺ وما شبع من خبز وزيت في يوم واحد مرتين**». وبلفظ آخر: «**ما شبع آل محمد ﷺ يومين من خبز بُرٍّ إلا وأحدهما تمرٌ**».

(٣) هذا من الأحاديث التي لا أصل لها كما قال ابن السبكي في طبقات الشافعية الكبرى،=





محمد عاشوا في فقر من هذا القبيل بمعاناتهم من النَّقص الفعلي: أنس بن مالك ـ الذي كان خادمًا للنبي ـ يحكي أنه عندما جاءت فاطمة إلى أبيها بكسرة خبزٍ؛ قال لها: «**أما إنَّه أول طعام دخل بطنَ أبيك منذ ثلاثة أيامٍ**»[1]، وأبو هريرة ـ المحدِّث لعدد كبير من الأحاديث التي تعطي انطباعًا لمفهوم زهديٍّ وورعٍ قويٍّ ـ يحكي «**أن النبي كان يجوع حتى أنه كان يشدُّ صُلبه بالحجر ليمنع ألَم الجوع**»[2]. نفس الرجل يدَّعي أنه «**كانت تمضي شهور دون أن يُوقد في بيت النبي نارٌ لخبزٍ ولا لطبيخ. فسأله الراوي: على ماذا كانوا يعيشون؟ فأجاب أبو هريرة: على الأسودين: التمر والماء**»[3]، وتحكي عائشة كيف «**أنها حصلت في أحد الأيام من**

---

=٦/ ٣٢٦، ط: دار هجر. وقد صحَّ في أكثر من حديث أنه سأل عن الطعام، ودعا مرة بطعام فأُتي بخبز وأُدم من أدم البيت، فقال: «**ألم أرَ بُرمةً على النار فيها لحم؟**» أخرجه البخاري في الصحيح (٥٠٩٧)، ومسلم في الصحيح (١٥٠٤).

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى ١/ ٣٠٦، ط: دار الكتب العلمية، ١٩٩٧م، وخرجه الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة (٤٨٧٣)، وقال: ضعيف.

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات ١/ ٣٠٧، وهو ضعيف، والذي صحَّ «**إنما كان في واقعة خاصة وهي أثناء حصار المدينة في غزوة الخندق، فعصَّبَ رسولُ الله ﷺ بطنه بعصابةٍ من الجوع**»؛ كما في صحيح مسلم (٢٠٤٠).

(٣) أخرجه ابن سعد في الطبقات ١/ ٣٠٧، وأحمد في المسند ٢/ ٤٠٤، وله تكملة مهمة جدًّا،=

**والدها أبي بكر على قائمة شاةٍ ليلاً، فحاولت هي ورسول الله تقطيعها في الظلام. فسأل الراوي: في الظلام! ألم يكن عندكم مصباح؟ فأجابت عائشة: لو كان عندنا مصباحٌ لائتدمنا به»**[1]. وفي مرة أخرى «**شرعت عائشة فُجاءةً في البكاء، فسألها الحاضرون عن سبب ذلك؟ فأجابت: بلغني أن الرجل منكم يأكل من ألوان الطعام حتى يلتمس لذلك دواءً يُمرؤه، فذكرت نبيكم ﷺ، فذاك الذي أبكاني، خرج من الدنيا ولم يملأ بطنه ـ طوال حياته قطُّ ـ من طعامين، كان إذا شبع من التمر لم يشبع من الخبز، وإذا شبع من الخبز لم يشبع من التمر، فذاك الذي أبكاني»**[2]. و«**عندما مات النبي كانت درعه مرهونة عند يهوديٍّ بثلاثين صاعًا من شعير**»[3]. عن تواضعه وبساطته يخبرنا حديث آخر: لما بعث الله محمدًا

---

=حيث قال أبو هريرة: وكان له جيران من الأنصار، جزاهم الله خيرًا، لهم منائح يرسلون إليه بشيء من لبنٍ. وقد أخرج البخاري (٢٥٦٧)، ومسلم (٢٩٧٢) هذا الحديث بتمامه عن عائشة رضي الله عنها.

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات ١/ ٣١٠، وأحمد في المسند ٦/ ٩٤ و٢١٧. وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣٢٧٦).

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات ١/ ٣١١، وإسناده ضعيف.

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح (٢٩١٦)، ومسلم في الصحيح (١٦٠٣) من حديث عائشة رضي الله عنها. وقد وهم أندريه فكتب (ثلاث) مكان (ثلاثين).





قال: (هذا نبيي، هذا خياري، ائنسوا به، وخذوا في سنته وسبيله، لم يكن تغلق دونه الأبواب، ولا تقوم دونه الحجبة، ولا يُغْدى عليه بالجفان، ولا يراح عليه بها، ويجلس بالأرض، ويأكل طعامه بالأرض، ويلبس الغليظ، ويركب الحمار، ويردف بعده، ويلعق أصابعه، وكان يقول: «**من يرغب عن سنَّتي فليس منِّي**»[1].

ثم علَّق أندريه: (بعض هذه السمات تبدو لنا ملموسة حقيقة، وتشعر أنها تحمل معها أثر صبغة الواقع،...) وأورد إشكالاً سنتطرق إليه عند بيان المآخذ عليه.

٧ – وأورد أندريه بعض الشبهات حول تغيُّر سلوك النبي ﷺ بعد الهجرة؛ ثم أجاب ببرهانٍ ضروريٍّ مهمٍّ فقال: (ورغم ذلك يشير كلُّ شيء ـ وبشكل كبيرٍ ـ إلى أن محمدًا قد عاش حتى في المدينة حياة بسيطة نسبيًّا، وأنه اتَّبع في حياته نموذج الزهد المعتدل الذي طالب به في دعوته. نسمعه في القرآن يدافع عن نفسه ضدَّ كل الاتهامات المحتملة من اليهود أو المنافقين؛ أولئك المترددون من أهل المدينة. ولا نجد شيئًا حول أي ادعاء للترف أو التبذير أو الحياة الفخمة؛ وبالتالي يحقُّ لنا أن نقرِّر أن حياة النبي في هذا الخصوص لم تعطِ أيَّ مسوغٍ للَّوم).

---

(١) طبقات ابن سعد ١/ ٢٨٠ عن الحسن البصري مرسلاً.

٨ – وقال ـ مقدِّمًا برهانًا آخـر في غايـة الأهميـة ـ: (يجـب أن لا ننـسى أن الطائفة المتشددة ضدَّ التوسـع الـدنيوي، خـصوصًا في العهـد الأُمـويِّ، تـشبَّثَ بمنهج الزهد والورع القديم، وكانوا بـشكل واضـح الورثـة الـشرعيين للطبقـة المقرَّبة من أصحاب النبي الـذين أُعجبـوا بـالنبي واتبعـوه لـيس فقـط لمقاصـده السياسية بل أيضًا لمقاصده الدينية؛ رجال مثل: عمر، وأبو هريرة، وابن مسعود، والتابعين لهم. تلك الروحانية التي تميز بهـا الأتقيـاء الجـادُّون مـن الجيـل الأول ترجع بلا شكٍّ إلى الحالة الأساسية عند النبي نفسه).

٩ – وقال أندريه: (الأصالة والجدية في تقوى محمد، والإخلاص في إيمانـه بدعوته الدينية أمور لا شكَّ فيها).

١٠ – وأورد بعض الشبهات ثم قال: (على أنَّ التحليلَ لأخلاقيات محمـد يُظهر بشكل كبير ما يمكن وما يجب أن يقال دفاعًا عنه)؛ وأورد في ذلـك تحلـيلاً نفسيًّا سنتطرق إليه لاحقًا.

١١ – وقال أيضًا: (من الواضح أن محمدًا قـد امتلـك قـدرة خارقـة عـلى كسب تأييد الناس، وتمكن ـ غالبًا ـ من خلال سحرٍ أن يحوِّل المعاداة إلى متابعـة، والكراهية إلى مودَّة. لقد كان يُظهر مودَّة خاصة للذين كانوا من أعدائـه سـابقًا، ويعاملهم بلطف، مما كان يثير أحيانًـا رفـض أصـدقائه. يبـدو أن محاولـة كـسب





الناس من خلال اللطف والمجاملة كانت السلوك الأكثر فطرية لدى محمد، والقلة هي التي تمكنت من مقاومة جاذبية شخصيته).

١٢ – وأورد أندريه شبهة تعدد زوجات النبي ﷺ، فقال: (الملمح الذي بدا للغرب المسيحي الأكثرُ إثارةً للاشمئزاز في شخصية محمد هو ـ بلا شكٍّ ـ: شهوانيَّته. افتقاره إلى الاعتدال وضبط النفس في هذا المجال؛ يبدو لنا أكثر سوءً، لأن من الأخلاق المسيحية المشتركة لدينا ـ وهي إرث زهدي قديم ـ المبالغةُ في مفهوم الخطيئة الجنسية، ما يدعى بالحياة الجنسية الحرَّة يعدُّ في الغالب خطيئة بالمعنى المطلق والحقيقي. منذ ذلك الوقت وجد اليهود في المدينة سلوك محمد في هذه النقطة مثيرًا للإزعاج، وتسآلوا: أيُّ نبيٍّ هذا الذي لا يفكر إلا في أن يتزوج؟[1] مما لا شكَّ فيه أن رسولاً يعلن أن النساء والأطفال من فتن الحياة الدنيا، ومع ذلك لا يكتفي من الحريم بتسع زوجات بل يتخذ جوارٍ أيضًا، لا

(١) ذكر بعض أئمة التفسير من السلف عند قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤]؛ أن اليهود قالوا للمسلمين: زعم محمد أنه أوتي ما أوتي في تواضع، وله تسع نسوة، وليس همه إلا النكاح؛ فأي ملك أفضل من هذا؟ فنزلت هذه الآية، قال السُّدِّي: فما باله حلَّ لأولئك الأنبياء ـ وهم أنبياء ـ أن ينكح داود تسعًا وتسعين امرأة، وينكح سليمان مئة امرأة، ولا يحلُّ لمحمدٍ أن ينكح كما نكحوا! انظر: الدر المنثور للسيوطي ٤/ ٤٨٧ طبعة دار هجر.

شك أن هذا من وجهة النظر الأخلاقية يعدُّ ظاهرة مشبوهة. ولا يصبح هذا التصور أفضل بذكر حقيقة أن محمدًا وحتى وفاة خديجة ـ أي: إلى الخمسين من عمره ـ قد اكتفى بزوجة واحدة؛ لأنه قد أطلق العنان لرغباته الشهوانية في ذروة مسيرة حياته، بعد أن أصبح رجلاً مسنًّا).

وهكذا نرى اعتراف أندريه بأن اهتمام الغرب بهذه القضية مبنية على الرؤية النصرانية إلى مسائل الزواج والطلاق، فالرهبانية المبتدعة قد جعلت الانصراف عن النساء من شروط التعبد والتزهد والتقرب إلى الله تعالى، وخالفت الفطرة السليمة في نظرها إلى المتعة الجسدية المشروعة، لهذا قال أندريه: (ومع ذلك؛ فإننا لا نحاكم نبيَّ الإسلام وفقًا لمعاييرنا الأخلاقية، ولكن وفقًا لما أقرَّ به هو نفسه. وقبل كل شيءٍ، وحتى نفهم موقفه في هذه النقطة؛ يجب علينا أن ندرك التربية الجنسية والتقاليد المتَّبعة في الجزيرة العربية في زمنه).

ثم بدأ أندريه بتقديم توضيح تاريخي من خلال بيان مظاهر الفساد الأخلاقي عند العرب في زمن البعثة، فذكر صور الزواج المختلفة، والاستخفاف بأمر الطلاق، وانتشار الزنى، وإهانة المرأة وهضم حقوقها، وارتباط الزواج بالاعتبارات القبلية من حيث الحماية والنصرة والترابط الاجتماعي، وذكر وصفًا طويلاً جيدًا لا يمكننا نقله هنا لطوله، ثم قال: (إن النظر إلى خلفية هذا التصور





لأخلاقيات وعادات الزواج عند العرب يُظهر شهوانية محمد برؤية أخرى: إنه يبدو من غير المؤكد فيما إذا كان سلوكه في هذه المسألة قد أثار ـ بشكل ما ـ الانتباهَ، أو كان أقل ملائمة. تذكر الروايات القديمة ـ برضًى واضح ـ إشارات عائشة القوية إلى ضعف زوجها أمام الجنس[1]، وتنقل ـ ببراءة ـ قولاً عن النبي يبيِّن فيه أنه حُبِّب إليه من الدنيا ثلاث: النساء، الطيب، والصلاة[2]. من الاحتمالات التي يمكن أن تصورها أن نقدًا من طرف المؤمنين هو الذي أدى إلى تحديد الحرية الجنسية، الأمر الذي ألزم محمد به نفسه في سورة الأحزاب (٣٣) الآية (٥٢): **﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا ﴾**؛ لكن يبقى الاحتمال الأقوى

---

(١) لعل أندريه فهم هذا من مجموع الأحاديث الواردة في قوته ﷺ على الجماع، وحبه لعائشة، وأشباه ذلك، وهي صحيحة في الجملة لكنها لا تدل على (الضعف أمام الجنس) بالمفهوم المذموم الذي يتبادر إلى الذهن من هذا السياق.

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات ١/ ٣٠٤، وأحمد في المسند ٣/ ١٢٨ من حديث أنس رضي الله عنه. ولفظه: «**حُبِّب إلي من الدنيا: النساء، والطيب، وجعلت قرة عيني في الصلاة**». وهو حديث حسن لكن زيادة (ثلاث) لا أصل لها في الحديث كما بيَّنه الحافظ العراقي والزركشي وابن حجر. انظر: فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي ٣/ ٤٩٠، دار الكتب العلمية، بيروت: ١٤١٥هـ.

أن هذا الحكم قد جاء كتضحية مصالحة من أجل زوجات النبي، وكان حينئذٍ قد حصل خلاف ـ لسبب لا نعرفه بشكل مؤكد ـ فأظهر نيَّته في أن يطلقهن جميعًا)[1].

ثم ختم أندريه بحثه في هذه المسألة بهذه الكلمة ـ وهي مما أثارت غضب زويمر في مقاله الذي أشرنا إليه سابقًا ـ: (في الدفاع عن محمد ينبغي ـ أيضًا ـ أن نذكر أنه نفسه قد حافظ بدقة على الحدود التي وضعها، وأنه أراد من خلال تشريعاته أن يقيِّد الحرية المطلقة المتعلقة بالقضايا الجنسية. لقد حاول بطرق شتَّى أن يغرس مفهومًا للزواج أكثر انضباطًا، وأن يرفع من مكانة المرأة، ومن ذلك إعطاؤها حقَّ الميراث ـ بينما لم تكن ترثُ قبل ذلك إلا أحيانًا ـ وأمره بأن تعامل المرأةُ ـ وجوبًا ـ بطيبة، ومودة، وعدل).

إنَّ تعدُّد زوجات النبي ﷺ مما يخوض فيه المستشرقون كثيرًا، وليس بإمكاني ـ هنا ـ تفصيل القول فيه، وقد أُفرِد بالبحث والتأليف، لكنِّي أكتفي بهذه الإلماحة الموجزة:

---

(١) هذا الاحتمال الثاني له وجه قوي يمكن أن يخرج على بعض الأقوال في تفسير الآية، انظر: الدر المنثور للسيوطي ١٢/ ٩٩. أما الاحتمال الأول فدعوى مجردة، وظن فاسد، فلو كان للمؤمنين اعتراض في ذلك لاعترضوا على زواجه ﷺ من تسعٍ وقد حرِّم عليهم ما زاد على الأربع!

في الحديث الذي أورده أندريه: (حُبِّبَ إليَّ) بالبناء للمفعول، فلم يقل ﷺ: (أحببتُ)، ولهذا دلالته؛ فإنَّ محبته للنساء والطيب من عطاء الله تعالى واختياره له لما في ذلك من الحكم العظيمة، لهذا كان الصحابة رضي الله عنهم يتحدَّثون «**بأنَّه ﷺ أُعْطي قوَّةَ ثلاثينَ رجلاً، فكان يدور على نسائه في الساعة الواحدة ـ من الليل والنهار ـ، وهنَّ تسعُ نسوة**»[1]. ومن تلك الحكم:

١ – إن الإسلام لا رهبانية فيه، والنبيُّ ﷺ هو الأسوة والقدوة في ذلك، فلولا أنه استكثر من النساء؛ لظنَّ كثيرٌ من أتباعه المؤمنين أن الأقرب للتقوى هو ترك النكاح، ولوقعوا في مثل ما وقع فيه كثير من النصارى، لهذا كان ابن عباس رضي الله عنهما يقول: «**تزوجُّوا، فإن خير هذه الأمة أكثرها نساءً**»[2]. ومع وضوح هذا وشهرته فقد وُجد في المسلمين بعد الصدر الأول من يرى أن من كمال التدين والتوجُّه إلى الله تعالى ترك النكاح!

٢ – إن نساء النبي ﷺ قد تيسَّر لهنَّ الاطلاع على ما لا يمكن لغيرهنَّ الاطلاع عليه من شؤونه في بيته وأموره الخاصة وما يكون بين الرجل وامرأته، فحصل لهنَّ من ذلك معرفة كبيرة بالأحكام الشرعية المتعلقة بتلك الأمور،

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح (٢٦٨) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح (٥٠٦٩).

فقمن بنقلها لغيرهنَّ، فتحقَّقت مصلحة حفظ تلك الأحكام الشرعية ونقلها وتبليغها، وكان لأمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها الحظُّ الأوفرُ في هذا.

٣ – إنَّ تعدد زوجات النبي ﷺ من دلائل صدق نبوَّته، ذلك لأنَّ المرأة تكتشف من سلوك الزوج وأخلاقه ما لا يمكن لغيرها الاطلاع عليه، وكم من رجل مشهور بين الناس بالعلم والفضل وحسن الأخلاق؛ تشتكي منه امرأته أشدَّ الشكوى، لهذا كان النبي ﷺ يقول: «**خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهله**»(1). وقد ثبتت خيريَّته هذه بشكل قطعيٍّ بما أخبرت به نساؤه رضي الله عنهن من حسن أخلاقه ﷺ، وكمال أدبه، واستقامة سلوكه؛ في أحواله كلها.

٤ – وأخيرًا: إذا أردنا أن نستخدم التحليل النفسي على وجه المحاججة والجدل فسنقول: إنَّ رغبته ﷺ في النساء من قوة رجولته، وصحة بدنه، وسلامة غريزته. والعقلاء من سائر الأمم يعدون الانصراف عن النساء، وعدم الرغبة فيهنَّ، أو النِّفار من جنسهنَّ؛ من ظواهر المرض النفسي والانحراف السلوكي. وإنَّ من المعلوم من سير الأذكياء والمبدعين أن الجانب الذي برَّزوا فيه يطغَى على سلوكهم بل حياتهم كلها، فيصيبهم بخلل ظاهر في شخصيتهم وفي

(١) أخرجه الترمذي في الجامع (٢٨٩٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٣٣١٤).





علاقاتهم الاجتماعية، إذ ينزع بعضهم إلى ترك الزواج أو يكون فاشلاً فيه، ويصاب بعضهم بالكآبة ويرغب في العزلة، ويعجز بعضهم عن الوفاء بمتطلبات رعاية الأسرة والتواصل الاجتماعي، بينما يظهر على آخرين منهم عدم الاهتمام بالزي والمظهر والنظافة. ومن هنا فإن قدرةَ محمدٍ على الاحتفاظ بالتوازن الشخصي والاجتماعي بحيث لم تمنعه هموم دعوته ورسالته عن ممارسة حياته اليومية على أفضل وجه، وقدرته على الوفاء بجميع التزاماته ووظائفه: نبيًّا، وإمامًا، وقائدًا، ومعلمًا، وناصحًا، وزوجًا، وأبًا، وصديقًا؛ لمن أعظم دلائل تأييد الله تعالى له، واختصاصه بتلك القوة والنشاط والاتزان مع طمأنينة القلب وهدوء النفس والبركة في الوقت، فهو رسول الله المصطفى، ونبيُّه المجتبَى، عليه أفضل الصلاة والسلام.

**أخطاء ومغالطات في بحث أندريه:**

تلك هي كلمات أندريه المنصفة في حقِّ النبيِّ الكريم ﷺ، لكن لأندريه كلمات أخرى بعيدة عن الحق والإنصاف، والتحامل فيها واضح، وبعضها سيئة جيدًا، على أننا سنحاول فهمها في سياقها، والكشف عن جذورها، ومناقشتها بعلم وعدل، فالحماسة الإيمانية للباحث ومحبته العظيمة للنبي ﷺ لا تحمله على الوقوف عند ظاهر تلك العبارات حسب ـ وإن كان يرفضها رفضًا قاطعًا،

ويشعر بالغضب والإهانة البالغة منها ـ؛ بل يستحضر كل ما سبق ذكره عن المؤلف الذي نشأ في بيئة نصرانية، وخالف التوجه العام لأساتذته وأقرانه ومجتمعه في موقفهم من الإسلام، وخطى خطوات جيدة لتقديم رؤية متَّصفة بكثير من الإنصاف والاعتدال، ولم يعبأ بالانتقادات التي وجهت إليه، ولم يرضَ أن يُشيد بالنصرانية على حساب الإسلام، بل قالها صراحةً في مقدمة كتابه هذا: (نوع التدين المحمدي[1] أصبح حتى اليوم وبشكل عام معرَّضًا للتقييم غير العادل من قبل باحثي الأديان الغربيين).

لقد حاول أندريه أن يقدِّم: (تقييمًا عادلاً)، فجاء تقييمه ـ على وجه العموم ـ: عادلاً نسبيًّا؛ إذا ما أخذنا في الاعتبار عقيدته النصرانية، وارتباطه الديني بها تدينًا ووظيفةً، ثم عدم إيمانه بنبوة محمد ﷺ. هذه الأمور وغيرها لم تكن لتترك أندريه في سلامة من التحامل والمغالطة والتفسير المتكلَّف لبعض الجزئيات للشغب على الكليَّات القطعية. وقد اعترف المستشرق يان ييربه بأن تور أندريه: (وإن كان لا يمكن تصنيفه كمدافع أعمى عن النصرانية ضد الأديان الأخرى؛ إلا أنَّ تساؤلاته ـ في الغالب ـ محدَّدة في إطار قيم أخلاقية،

(١) يوافق أندريه هنا أهل عصره في تسمية دين الإسلام بـ: (المحمدية)، وهو اسم من اختراع الكنيسة في العصور الوسطى، وكان مستعملاً حتى منتصف القرن الماضي.







وإشكالات لاهوتيَّة)[1].

إن مغالطات أندريه ترجع أساسًا إلى عدم إيمانه بالدين الحقِّ، وهذه إشكالية عميقة لا يمكننا معالجتها هنا، لأن الرجل قد قامت قيامته منذ أكثر من ستين سنة، وإنما أشرنا إليها هنا حتى ندرك سبب بعض الأخطاء المنهجية التي وقع فيها، فإنه لما لم يؤمن بالوحي المحمدي، ولم يرتض لنفسه ـ أيضًا ـ أن يسلك طريق أسلافه من أهل القرون الوسطى الذين وصفوا النبي الكريم بكلِّ قبيحة؛ لم يجد بُدًّا من اختلاق تفسيرٍ يرضي به نفسه القلقة وفكره المتحيِّر، فزعم أن رسالة محمد ﷺ تستند في مصدرها إلى شيئين:

الأول: ما أخذه النبي ﷺ من أهل الكتاب ـ النصارى على وجه التحديد ـ. وخالف أندريه هنا عامة المستشرقين الذين يزعمون أنه ﷺ أخذ عنهم في بلاد الشام، فزعم أنه أخذ عن بعض وعَّاظ النصارى الذين قدموا من الشام إلى مكة للتجارة والتبشير!

الثاني: الإلهام الداخلي للنبي ﷺ، وهو ثمرة قوة إحساسه، ورقة نفسه، وصفاء روحه، وعلو همَّته. لقد زعم أندريه أن ذلك الإلهام كان نداءً صادقًا من

(1) Hjärpe, Jan: «Det svenska studiet av Islam» i Magnus Bengt och Veronica Trépagny (red.), I andra länder. Lund: Historiska media, 1999. S. 43.

أعماقه ﷺ ظنَّه وحيًّا، وتشكَّل له في صورة ظنها جبريل. وكان في كل ذلك صادقًا مخلصًا، معبرًا عن تجربته الذاتية الأصيلة.

لقد ظلَّ أندريه محكومًا بهذه الفكرة في ثنايا كتابه كلها، فكلُّ ما عند محمد ﷺ لا بدَّ أن يُرجع إلى أصوله النصرانية، فالإسلام ليس إلا فرعًا منها، ورغم ذلك فما عند محمدٍ ﷺ: (أصيل ويعبِّر عن تجربة ذاتية صادقة). أي: أنه لم يكن مجرَّد ناقل عن غيره، بل كان يحفظ تلك الأفكار ويعيد صياغتها بعبقرية فذَّة.

وليس غرضي في هذا البحث مناقشة وإبطال هاتين الشبهتين، وهي من الشبهات التي كررها كثير من المستشرقين، لكن ما يتميز به أندريه أنه لا يرجع ما يسميه بالإلهام إلى مرض أو جنون أو اضطراب نفسي، وما شابه ذلك، بل يرجعه إلى (التجربة الذاتية الصادقة)، إنه: (إلهام من أعماق النفس)، وقد عاش النبي ﷺ تلك التجربة بصدق وإخلاص. ولم يحاول أندريه أن يعيننا على فهم حقيقة ذلك، بل اكتفى بتخفيف حدَّة غموضه بادعاء أنه يستند إلى المعرفة المكتسبة من خلال مواعظ عابرة سمعها النبي ﷺ في بعض أسواق العرب من أحد وعاظ النصارى، ثم نسي تلك الكلمات التي استقرت في أعماقه لتفجِّر من بعدُ إلهامًا مبدعًا: فإذا هو كتابٌ مبين يذهل العرب والعجم بإعجازه، ودينٌ يقيم التوحيد الخالص، وشريعةٌ تامَّة جامعة للمحاسن، وأمَّةٌ تخرج من أرض





الجزيرة لتبلغ بالحق والهدى والعدل إلى مشارق الأرض ومغاربها!!

إن هذه الدعوى المجردة من أيِّ برهان علميٍّ لا تستحق أن تردَّ إلا بالسخرية والتهكُّم، وهذا ما فعله المستشرق السويدي كريستر هيدين في دراسته عن أندريه، وأذكر هنا نص كلامه لأهميته: (يؤكِّد أندريه دائمًا على صدقِ محمد، وبهذا يظن أنه يخفف من الاستخفاف بالإسلام، وهو ما يتهم به الباحثين الآخرين. لقد بشَّر محمد برسالة نزلت عليه بواسطة جبريل. هكذا يقول القرآن والإسلام. قرأ جبريل على محمدٍ بصوت عالٍ من القرآن السماوي، ثم قام محمد بإملاء خبر الوحي أو كتابته. هكذا كانت قناعة محمد. لكن تور أندريه أَعلمُ! إنه درس علم النفس الديني المعاصر ونال علومًا عن القوة الذاتية والإلهام مما أدخله في كتابه: (التصوف وعلم النفس). لقد استطاع محمد أن يفهم صوتًا من داخله، وهو ما ظهر من خلال نوع من القوة الداخلية. بهذه الطريقة حصل على انطباع أنَّ جبريل هو الذي كلَّمه)[1].

لقد كتبتُ إلى كريستر هيدين أسأله عن مراده من قوله: (لكن تور أندريه أعلمُ)؛ فكتب إلي يقول: (إنني هنا ساخرٌ! كان ينبغي أن أكتب: (يرى أندريه نفسه أنه يعلم أكثر). إن عنده صفةً خطيرةً ـ إلى حدٍّ ما ـ هي أنه يرى أنه يستطيع

(1) «Tor Andrae och orientalismen» s. 28.

ـ لمعرفته بعلم النفس ـ أن يكتشف الآخرين، ويرفع النقاب عمَّا لا يعرفُه أولئك أنفسُهم. إنني أقصد أنه يدَّعي ـ فحسب ـ أنه يعرف أكثر)[1].

إن هذا يظهر لنا مشكلة منهجية ثانية لدى أندريه، وهي اعتماده على التحليل النفسي في دراسة السيرة النبوية. وقد ذكرنا ـ سابقًا ـ اهتمامه بعلم النفس، وكتاباته في التحليل النفسي للدين والتصوف، وهذه المنهجية هي من آثار نظريات فرويد النفسية ـ وإن لم يتبنَّ أصحابها الجانب الإلحادي من فكر فرويد ـ، وبرز استخدامها في أوربا بعد الحرب العالمية الأولى، حيث توجه عدد من الباحثين إلى دراسة حياة الأنبياء وكبار الشخصيات العالمية من خلال النظريات النفسية، لهذا نجد هذا الاهتمام عند أشد الناس تأثيرًا في شخصية أندريه وهو أستاذه وموجهه: ناتان سودربلوم. والرجلان نصرانيَّان كنسيَّان ديانةً ووظيفةً؛ فخوضهما في دراسة ظاهرة الوحي بهذه الطريقة النفسيَّة ينعكس على إقرارهما بالوحي والنبوَّات، فلِمُلحدٍ أن يلزمهما بما ألتزما به في نظرهما إلى نبوة محمد ﷺ، وليس لهما مفرٌّ من ذلك إلا بالاعتراف بفساد هذه الطريقة وافتقارها إلى منهج علمي ينتج برهانًا صحيحًا، فالخوض في دراسة الأديان

---

(١) رسالة جوابية من الدكتور كريستر هيدين ـ أستاذ تاريخ الأديان بجامعة ستوكهولم ـ بتاريخ: ١٢/ ٢/ ٢٠١٠م.

بالتحليل النفسي يفتح مجالاً واسعًا لدراسة الحقائق التاريخية بالظن والتخمين والآراء الشخصية، وكما قال لي يان ريتسو: (إننا ملزمون بالحقائق التاريخية، أما أن نقوم بدراسة بواطن شخصيات عاشت قبلنا بمئات السنين فهي محاولة فاشلة لاكتشاف المجهول، ولو أن شخصًا من أولئك كان بين يدي لكان بإمكاني أن أخضعه لجلسة نفسية، أما وهو غائب عنِّي؛ فلا)[1].

ومن الإنصاف لأندريه أن نذكر كلامه في التحليل النفسي لشخصية النبي ﷺ ليتبيَّن القارئ مما ادعيناه عليه من الخلل المنهجي:

قال أندريه: (قضية النزاهة الذاتية والإخلاص في هذا الإلهام الديني هي قبل كل شيء قضية نفسية. وبطبيعة الحال؛ فإنه لا يقال: إن أي شخص حصل له وحيٌّ حقيقيٌّ لا يمكن أن يقوم عن عمدٍ بتزييف الرسالة، أو انتحال صفة النصابين الدينية مع عجائب ومعجزات مزعومة[2]. ليس من النادر أن يظهر أن

(١) أ. د. يان ريتسو، أستاذ اللغات السامية بجامعة غوطبورغ، ومتخصص في تاريخ العرب قبل الإسلام، مقابلة شخصية بمكتبه بتاريخ: ٢٤/ ٢/ ١٤٣١.

(٢) وهنا يقال لأندريه: إن القضية النفسية لا يمكن الحكم عليها إلا من خلال ظواهرها وآثارها في أقوال وأفعال صاحبها، لهذا وجدناك مضطرًا إلى بحث السلوك العملي للنبي ﷺ. أما دعوى إمكانية تزييف الوحي الحقيقي؛ فيبطلها إقرارك بالربوبية والوحي والنبوة، فالوحي الحقيقي لا يكون إلا من عند الله ﷻ، وهو كفيل بحفظه من التحريف والتزييف ـ كما=

الملهم يعيش في عالم رائع، غير واقعي، وأن لديه نزعة واضحة أن يجعل الواقع البسيط متوافقًا مع عالم الحلم الروحي الذي تسكن فيه روحه. غالبًا لا يمكن حتى بالفحص النفسي الدقيق أن يحدد حسن النية والصدق في الإحساس الذاتي فيكون في متناول اليد. ويبدو أنه من الممكن أن تكون التجربة ـ الحقيقية وغير الحقيقية ـ يستيقظ الملهم منها وكأنه خرج من حلم، ويجد نفسه قد أنتجت تجارب خارقة للطبيعة. ومن جهة أخرى: فإنه من غير العادل الادعاء أن الميل للباطل، والنفاق، والكذب المَرَضي يمكن أن يكون من ميزة الملهمين على وجه العموم. علم النفس الطبي السابق، هو الذي أطلق هذا المفهوم، وحصل على تفسيره الطبيعي من خلال معالجة الباحثين في الطب النفسي لمرضى أدنى منزلةً ولأفراد منحرفين من جنس الملهمين. غير الواقعية هذه ـ حسب الاستقراء ـ يمكن أن تكون مقترنة بأعلى درجة من النزاهة الشخصية. نحن جميعًا قد واجهنا بالتأكيد أشخاصًا من هذا النوع، متحمسون لا يمكن إصلاحهم، حالمون في أرض الله، لديهم صعوبة في الحصول على اتصال مع الواقع[1]، وبقدر ذلك من

=تقدم ـ، أما وحي النفس والشيطان فهو بعيد عن الحقيقة باتفاق المقرِّين بالنبوات.

(١) وهكذا نجد أندريه يعدُّ النبي ﷺ من جنس الملهمين، الذين يتميزون بذكاء حادٍّ، ويطوفون بخيالاتهم في عالم مثالي، وعندما يحاولون الاتصال بالواقع يعمدون إلى الكذب=





الصعوبة في أن يأخذوا الأشياء كما هي في الواقع، وقد وجدنا أن أولئك يمكن أن يُكَوِّنوا بدقة بالغة طبائع صادقة، هم أشدُّ الناس طلبًا للحقيقة وقولاً لها. ومن جهة أخرى: يمكن أن يكون بعض الأشخاص واقعيين، وعندهم شعور واضح بالحقائق، إلا أنهم يكونون أكبر المخادعين الخُلَّص. نعم؛ قد يكون أمر الاحتيال الرفيع قابلاً للتشكيك في حالة ما إذا أمكن تصوُّره بدون إدراك ذكيٍّ للواقع. هذه الحقيقة النفسية البريئة تَمَّ تجاهلها عندما سُوِّي بين نزعة تزييف الواقع والرجوع إلى الإلهام الداخلي[1]. إنَّ إلهام محمد كان من الناحية النفسية

---

=والنفاق، وذلك لما بين العالمين من مفارقة، وليس بالإمكان معرفة مقدار حسن النية والصدق في سلوكهم هذا، إنهم غير مبرئين من الكذب والخداع، ولكن ليس من العدل القول بأن ذلك من معالم شخصيتهم، لأن التشخيص النفسي رصد هذه الظاهرة في الطبقة الأدنى من هذا الصنف المريض. هذه مقدمة يطرحها أندريه ليقنع القارئ بما سيدعيه من اجتماع صفات الأصالة والصدق والإخلاص من جهة، والمكر والخداع والنفاق من جهة أخرى؛ في شخصية واحدة هي شخصية النبي الكريم ﷺ. وسيحتج بشواهد وواقع سنبيِّن وجه بطلان الاحتجاج بها، وبذلك ستبطل دعواه هنا، لأن هذه المقدمة ـ التي احتج بها ـ ليست ضرورة مسلَّمة، بل هي رأي وظن، لأنَّ أندريه نفسه قد أقرَّ فيما تقدَّم أن الصدق والإخلاص تجربة ذاتية لا تخضع للتقييم الخارجي.

(١) يعني: أن سلوك الملهم المخلص يخضع لاستجابة صادقة وبريئة لتجربته الذاتية، بخلاف الملهمين المخادعين الذين يتعمدون تزييف الحقائق. والنبي ﷺ في زعم أندريه من=

أصيلاً، كما سبق تأكيده....) ثم قال: (كثير من الملهمين فهموا أنَّ تحقق الدليل الإلهي هو الذي يؤكِّد إرسالهم. الأساطير عن الرجل المقدَّس ليست دائمًا أكاذيب، ولكنها غالبًا تجارب حقيقية). ثم قال: (وبالطبع؛ غالبًا ما تُنتَجُ مثلُ هذه المعجزات مع إخلاص ذاتي كامل، ولكن من الواضح أنه لنفس الغرض يلجأ ـ بقصد أو بغير قصد ـ إلى الخداع).

قلتُ: هذا كله كلام أندريه، ويظهر ـ بأدنى تأمل فيه ـ أنه مجرد آراء شخصية يطلقها أندريه من غير أي مستند علمي، وعندما تكون تلك الآراء المجردة في حقِّ رجل عظيم ـ بل رسول كريم من ربِّ العالمين ـ؛ فإنها تدل على غرورٍ واستعلاءٍ، وهذا ما تنبَّه إليه كريستر هيدين، فقال: (مما يعطي الانطباع بشعور أندريه بالاستعلاء عدم رغبته في إخضاع وجهات نظره وأسسها للتمحيص العلمي. إنَّ (محكمتَه) لا تأخذ مرجعيَّة محدَّدة؛ لأنه من النادر أن يوضح على ماذا يبني عندما يحيل إلى (البحث النفسي) أو (علم النفس الديني). إنه يمكن أن يكون من المتعب والمزعج عدم معرفتنا أيَّ بحثٍ يقصد في إحالته، ولا إلى أي درجة يمكن أن يكون موثوقًا به)[1].

=الصنف الأول. إنه يبرِّؤُه من تعمد الكذب والتزييف، ويراه ضحية بريئة لأوهام التجربة الذاتية. وفي ضوء هذه النظرية الفاسدة يفسِّر حقيقة الوحي، ويقيِّم سلوكه وأخلاقه.

(1) «Tor Andrae och orientalism» s. 48.





نعم؛ لم تكن (محكمة أندريه) موفقة في اعتمادها لقانون التحليل النفسي، فقد جعل ذلك من (القاضي) طبيبًا نفسيًّا يحكم في الوقائع من خلال الانطباع الشخصي، وليس وفق الأحكام العادلة المنصفة، إنه يقرُّ بأنَّه بين يدي إنسان عظيم، متصف بالصدق والإخلاص والسلوك الرفيع، كل الأدلة تبرهن على أصالته واستقامته وصحة تدينه وإحساسه النفسي...؛ ومع ذلك لا يجد لبعض أعماله وتصرفاته الجزئية التفصيلية توجيهًا إلا بما يناقض ذلك كله، وهذه بعض الأمثلة من أحكامه الجائرة:

١ – قال أندريه: (لكن لا يوجد شيء يمكن أن يشير إلى أن محمدًا حاول استغلال التعظيم الخرافي لشخصه الذي أظهره المؤمنون به في المدينة، لإظهار منزلته) ثم استدرك قائلاً: (يمكننا أن نقرأ في السورة (٦٦) الآية (٣) أنه حاول المحافظة على الانضباط الضروري لدى حريمه من خلال أن يُفهم أنه يعلم أكثر من الآخرين. ويوجد في هذا احتمال خداعٍ بريء[١] من جانبه ـ بشكل أو آخر ـ،

(١) الترجمة الحرفية: (خداع ورع)، ويستعمل أندريه صفة (ورع) للدلالة على أنه ليس خداعًا خبيثًا كما كانت تدعي الكنيسة في العصور الوسطى حيث كانت تصف النبي ﷺ بالقائد الكبير الذي استطاع أن يقود قومه بالكذب والدجل والاحتيال. أما أندريه فيراه ملهمًا صادقًا، مخلصًا في دعوته، كان يسعى إلى تنفيذ مفاهيم إلهامه وتجربته الأصيلة في أرض=

وقد حصل هذا بلا شك في ظروف مخفَّفة). يشير أندريه إلى قوله تعالى في سورة التحريم: ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾، ومن عجبٍ أن ينزع أندريه إلى موقف جزئيٍّ، وهو يعلم جيدًا أن النبوة قائمة أساسًا على اختصاص النبيِّ بعلمٍ زائدٍ، قد أوتيه من قبل الوحي دون الناس أجمعين، وكان هذا موضع النزاع بين محمد ﷺ وقومه منذ أول يوم قال لهم فيه: «**أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقي؟**» قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقًا. قال: «**فإنِّي نذير لكم بين يدي عذاب شديد**»[1]. وقد كان الوحي ينزل على رسول الله ﷺ في مناسبات كثيرة لتكشف ما خفي عنه عن وقائع أو أشخاص، لهذا كان المنافقون يخافون أن ينزل فيهم وحيٌ يفضحهم[2]، فهل يمكن أن تغفل عن هذه الحقيقة

---

=الواقع، لهذا كان يضطر أحيانًا إلى استخدام (أساليب المكر والخداع)، لا لخبثه وفساد نيَّته، بل لحرصه إلى الوصول إلى ما اقتنع ـ صادقًا مخلصًا ـ بأنه مقاصد شريفة، وأهدافه نبيلة؛ لهذا فخداعه: (بريء). سبحانك هذا بهتان عظيم.

(١) أخرجه البخاري في الصحيح (٤٧٧٠)، ومسلم في الصحيح (٢٠٨).

(٢) كما في سورة التوبة: (٦٤).





إحدى أمهات المؤمنين، فيعمد النبي ﷺ إلى استخدامه كوسيلة انضباط؟! ولقول أندريه: (وقد حصل هذا بلا شك في ظروف مخفَّفة) دلالتُه، فهو يقصد أنه ﷺ لجأ إلى الخداع من غير ضرورة، وبالتالي فإنه لن يتورع عن الخداع كلما اشتدت به الظروف. إنَّ هذا الاستنتاج قد بناه أندريه على مجرَّد: (احتمالٍ) كما صرَّح به في عبارته السابقة، وهي تدلُّ على دقَّته في اختيار كلماته، وكان عليه أن يكون دقيقًا كذلك في ضبط المعاني، إذ لا يخفى على مثله أن (الاحتمال) لا يمكن ترجيحه ـ بله الجزم به ـ إلا بدليل خارجيٍّ، وأندريه يقرُّ بأن الأدلة الخارجية تدلُّ على صدق محمد ﷺ وإخلاصه واستقامته وأصالته، وهذه أمور مسلَّم بها؛ فهي كافية في نقض ذلك الاحتمال ودفعه.

٢ – ويقول أندريه: (على أي حال؛ هو لم يحاول بشكل كبير أن يقوي سلطته، ويضمن مكانته من خلال خوارق زائفة)، ثم يستدرك قائلاً: (إنني لا أعلم إلا استثناءين فقط: الأول: عندما أخذ في غزوة بدرٍ حفنةً من تراب، ورمى بها في جهة الأعداء. هذا العمل الخارق نُظر إليه كسبب للنصر. إن هذا يبدو تفسيرًا حسنًا إنه في أعلى لحظات الشدة، عندما وضعت قضيته على المحكِّ؛ جاءته آية من الله بهذا المحتوى، وهذا طبيعي مثلما فعل إشعيا عندما أراد أن ينتصر على الملك أهاس؛ لقد وعد ـ لإيمانه الجريء، وبلا تردد ـ بآيةٍ، قبل أن

يطلبها الملِكُ).

أقول: هذه محاولة فاشلة لاختزال ما في غزوة بدر من دلائل النبوة في نفس ذلك الفعل المجرد، ليوهم بعد ذلك أنه محاولة للخداع. إن ذلك الفعل كان من آثار تأييد الله ونصرته لنبيه ولعباده المؤمنين الذين لم يتجاوز عددهم ثلاث مئة وسبعة عشر رجلاً، مقابل ألفٍ من المشركين، فأوحى الله تعالى إلى ملائكته: ﴿ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ ﴾ [الأنفال: ١٢]، وأوحى إلى رسوله: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ [الأنفال: ٩]، وفي شأن تلك الحفنة من الحصباء التي رمَى بها رسول الله ﷺ وجوه المشركين أنزل الله آية في كتابه تقطع الطريق على أيِّ غلوٍّ في شخص النبيِّ، أو تعلُّق بذاته، فقال سبحانه: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ ﴾ [الأنفال: ١٧]، فليس هاهنا مجال لإثبات سلطة لذاته، أو مكانة لشخصه، بل القضية أعظم من ذلك، فهذه الغزوة، وما ظهر خلالها من آيات، والهزيمة الساحقة التي نزلت بالمشركين بأن قتل منهم سبعون، وأسر سبعون، ونتائجها الباهرة في التمكين للدعوة؛ كل ذلك انتصار للرسالة، وبراهين كونية على مصداقيتها، وليس انتصارًا مجرَّدًا لشخص الرسول ﷺ. وكان ينبغي على أندريه أن يذكر من أخبار تلك الغزوة ما يؤيد هذه المعاني





الجليلة، من ذلك: «**ما كان عليه النبي ﷺ من الابتهال إلى ربه، ومناشدته له ما وعده من النصر، بتذلل وانكسار وتضرع**»[1]، وكذلك «**إعلامُه أصحابَه قبل المعركة بيوم بمواضع هلاك أكابر أعدائه، فكان يذكر اسم كل واحد منهم ويحدِّد الموضع الذي سيقتل فيه، وتحقَّق ذلك كما أخبر**»[2].

ثم قال أندريه: (والثانية: الرحلة الليلية إلى القدس، وهي رؤية منامية، تحدَّث عنها بطريقة تظهر أنه منح الخيالَ نفس قيمة الحقيقة للتجارب الأخرى).

أقول: لم يوفق أندريه في هذا المثال أيضًا، فحادثة الإسراء والمعراج لم يكن لها طرف مادي حتى يتمكن محمد ﷺ من استغلالها في تثبيت مكانته، وتقوية سلطته. ثم إن الإسراء وقع ـ باتفاق العلماء ـ قبل الهجرة، وإعلان النبي ﷺ في أهل مكة ـ وعامتهم يكذبونه ويسخرون من دعوته ـ هذا الحدث الغيبيَّ بالنسبة لهم لم يكن ليحقق له أي مكسب في الواقع، ومن سبق منه الإيمان بنبوَّته لم يكن تصديقه لخبر الحادثة إلا بناءً على الإيمان السابق؛ كما صرَّح به أبو بكرٍ الصديق[3].

---

(١) صحيح البخاري (٤٨٧٥)، وصحيح مسلم (١٧٦٣).

(٢) صحيح مسلم (١٧٧٩).

(٣) حيث جاء ناس من قريش إلى أبي بكر فقالوا: هل لك في صاحبك يزعم أنه أتى بيت=

وهـو امتحـان صـعبٌ قـد يـسبب خـسارة بعـض الأتبـاع رغـم شـدَّة الحاجـة إليهم. فجميع هذا يدلُّ على أنَّ النبي ﷺ لم يكـن لـه غـرض في الإخبـار بهـذه الحادثة في تلك المرحلة من دعوته، وإنما كان الأمر كلُّه باختيار الله تعـالى وعلمـه وحكمتـه، كـما قـال سـبحانه: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

٣ – ويطرح أندريه تساؤلاً ـ يريد أن يخضع به سلوك النبي ﷺ في العهد المدني للشبهات والاتهامات، ليستنتج من ذلك أن الرجـل الملهـم لم يـتمكن مـن ضبط سلوكه في تلك المرحلة، وأنه قد صدر منه مـا يعـبِّر عـن كوامنـه ونزعاتـه الداخلية ـ فيقول: (هل فهم محمـد نفـسه أن يأخـذ حـذره أم سـقط في المدينـة ـ أحيانًا كما يقال ـ ضحيَّة للإغراءات الدنيوية: السُّلطة والشَّرف والمتعة؟) ثم ذكر وصفًا جيِّدًا لما عانى منه النبي ﷺ من الجوع والفقـر ـ نقلتـه فـيما سـبق ـ، ولم يترك قرَّاءه يتأملون تلك الشمائل الشريفة، بـل ألقـى علـيهم شـبهة تعيـدهم إلى نقطة التشكيك والارتياب؟ لنتركه يسترسل، ولنلاحظ ما يقـول: (بعـض هـذه

=المقدس ثم رجع إلى مكة في ليلة واحدة؟ قال أبو بكر: أو قال ذلك؟ قالوا: نعم. قال: لقد صدق، إني أصدقه بأبعد من ذلك أصدقه بخبر السماء. فسمِّي بذلك الصديق. انظر تخريجـه في كتاب: الإسراء والمعراج للألباني، المكتبة الإسلامية، عمان: ١٤٢١، ص: ٦٠.





السمات تبدو لنا ملموسة حقيقة، وتشعر أنها تحمل معها أثر صبغة الواقع، ولكن يصبح المرء مترددًا عندما يجد أحاديث أخرى تعطي صورة مختلفة تمامًا عن النبي، وتنفي بوضوح أن يكون قد اتَّبع في حياته الزهد المثالي؛ يقال: إن بعض صحابة النبي قد أشادوا في حضرته بورعهم؛ قال الأول: لا أتزوج النساء. وقال الثاني: لا آكل اللحم. وقال الثالث: أنام على الأرض. وقال الرابع: أصوم ولا أفطر. فقال النبي حينئذٍ: «**سبحان الله! أنا أصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وأتزوج النساء، فمن رغبَ عن سنتي فليس مني**»[1].

لقد تمَّ التركيز على إظهار أن النبي عاش كشخص عادي، لم يوجد شيء من التنطع والروحانية المبالغ فيها في طبيعته. جاء بعض الزهاد إلى زيد بن ثابت وقالوا له: حدثنا عن أخلاق رسول الله. فقال: «**ماذا أحدثكم؟ كنت جاره، فكان إذا نزل عليه الوحي أرسل إليَّ فكتبته له، وكان إذا ذكرنا الدنيا ذكرها معنا، وإذا ذكرنا الطعام ذكره معنا، أفكلَّ هذا أحدثكم عنه؟**»[2].

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات ١/ ٢٨٠، والبخاري في الصحيح (٥٠٦٣)، ومسلم في الصحيح (١٤٠١) من حديث أنس بن مالك. وقد ذكره أندريه بمعناه.

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات ١/ ٢٧٤، والترمذي في الشمائل (٣٤٣). وضعفه الألباني في مختصر الشمائل (٢٩٤).

إزاء هذه الأخبار المتعارضة ليس لدينا بالفعل الكثير من أوصاف الحياة البيتيَّة لمحمد، إلا أحاديث مبرمجة في قضايا أخلاقية، تلك الأحاديث التي يريد المرء منها أن يدعم بالسنة النبوية ويوضح طريقة حياته المثالية. لقد وجد في الإسلام أتقياء متشدِّدون في الالتزام، وَرِعون وزهاد، أرادوا المضي في طريق التضحية الضيق، وصخبوا ضد روح المادية والإسراف في المتع الجسدية بجميع أشكالها. بينما رأى آخرون أنه ينبغي للمرء أن يكون زاهدًا إلى حدٍّ معقول، وأن يأخذ بنصيبه من متع الحياة الدنيا. كلا الاتجاهين استندا إلى نموذج النبي، لهذا فإن ما حدَّثت به كتب السنة عن الحياة الشخصية لمحمد هو ـ في الغالب، وإلى حدٍّ ما ـ عديم القيمة كمصدرٍ تاريخي).

قلتُ: الجواب عن هذا الكلام واضح لكلِّ ذي عقلٍ، ولم يكن ليخفى على مثل أندريه ـ لولا التحامل والشَّغَفُ بالتَّشغيب على الحقائق ـ؛ فهذه الأخبار المختلفة متعلقة بأحوال وأزمان مختلفة، وبعضها لا يصحُّ أو له أصل صحيح لكن ليس بالمعنى والسياق الذي أورده ـ كما بيَّنته في تعليقاتي على كلامه[1] ـ، فقد كان رسول الله ﷺ يأتيه المال فينفق منه على نفسه وأهله بقدر الكفاف ثم

(١) راجع الفقرة (٦) من مبحث (الجوانب الجيدة في بحث أندريه)، التعليق: (٢٢) وما بعده.





يتصدق بالباقي، فتمضي عليه أيـام ـ تطـول أو تقـصر ـ يعـاني منهـا مـن الجـوع والعوز حتى يأتي مـال آخـر. ولعـل أندريـه قـد وقـف عـلى الأثـر الـذي أورده ابن سعد وفيه أنَّ أبا هريرة رضي الله عنه وصف جـوع رسـول الله ﷺ، فـسأله تلميـذه ـ متعجبًا ـ: كيف ذلك الجوع؟ فقال أبو هريرة: لكثرة من يغشاه وأضيافه، وقوم يلزمونه لذلك فلا يأكل طعامًا أبدًا إلا ومعه أصحابه، وأهل الحاجة يتتابعون من المسجد، فلما فتح الله خيبر اتسع الناس بعض الاتـساع، وفي الأمـر بعـدُ ضـيقٌ، والمعاش شديد، هي بلاد ظلف، لا زرع فيها، إنـما طعـام أهلهـا التمـر[1]. وبهـذا التفصيل يتبيَّن لنا عدم صحة ادعاء أندريه: (أنَّ تصوير فقر وتضحية النبي يجـب أن يكون مبالغًا فيه جدًّا. رغم أن النبي ـ حسب ما ذكره الواقدي ـ كان يستخدم خُمُس الغنائم التي كان يحصل عليها في كل الغزوات للهـدايا والـصدقات، فإنـه كان ـ أيضًا ـ ينفق منها على عائلته، وكانـت لديـه المقـدرة الماليـة عـلى أن يمـنح عائشةَ عقدًا ثمينًا من اللؤلؤ، وبالتالي لم يكن بحاجة إلى رهن درعه. إنـه لم يعـش على الأرجح في وضع مثاليٍّ تمامًا، كذلك الذي تصوره الأساطير الرومانية).

قلتُ: أما أنه ﷺ لم يكن زهده وتقشفه على طريقـة الفلاسـفة والرهبـان والمتنطعين؛ فهذا حق. وأمـا ادعـاؤه أن في تـصوير زهـده وفقـره ﷺ مبالغـة؛

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ١/ ٣١٣.

فمردود عليه بالتفصيل الذي تقدم. وأما قصة عقد عائشة ورهن الدرع؛ فحادثتان منفصلتان وقعتا في وقتين مختلفين، «**ولم يكن رسول الله ﷺ يدَّخر شيئًا لغدٍ**»[1].

وقد ورد حديث صحيح يوضِّح هذا وأنه سببُ رهن الدرع: فقد أخبر عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «**أنَّ رسول الله ﷺ خرج على أصحابه ذات يومٍ، وفي يده قطعةٌ من ذهبٍ، فقال: (يا عبد الله بن عمرو! ما كان محمدٌ قائلاً لربه لو مات وهذه عنده)، ثم قسمها قبل أن يقوم، ثم قال: (ما يسرُّني أنَّ لآل محمدٍ ﷺ مثل هذا الجبلِ ـ وأشار إلى الجبل ـ وأنِّي متُّ وتركت منه دينارين). قال ابن عباس: فقُبض رسول الله ﷺ يومَ قُبض فلم يدَعْ دينارًا ولا درهمًا ولا عبدًا ولا أمةً، وترك درعه مرهونةً بثلاثين صاعًا من شعيرٍ كان يأكل منه ويُطعم عياله، عند رجلٍ من اليهود**»[2].

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٢٣٦٢) من حديث أنس رضي الله عنه. وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٤٨٤٦).

(٢) أخرجه أحمد في المسند ١/ ٣٠٠، وابن ماجة في السنن (٢٤٣٩)، وابن جرير الطبري في تهذيب الآثار: مسند ابن عباس ١/ ٢٣٩. وأخرج البخاري في الصحيح (٢٣٨٩): عن أبي هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «**لو كان لي مثل أُحُدٍ ذهبًا ما يسرني أن لا يمرَّ علي ثلاثٌ، وعندي منه شيء، إلا شيء أرصده لدَينٍ**». وأخرجه هو (٦٤٤)، ومسلم (٩٤)=





٤ – ويورد أندريه شبهة أخرى ـ محكومًا بتحليلاته النفسية ـ فيقول: (يمكن الحكم من خلال مواضع متفرقة من القرآن بأن محمدًا أراد أن يحيط نفسه في المدينة بسياج شَرَفِيٍّ من المراسيم التي تدعم منصبه القيادي الجديد. ومن هنا منع المؤمنين من أن: (يرفعوا أصواتَهم فوق صوت النبي) يعني: أن يتكلموا بصوت مرتفع في حضوره، ويؤكد أنه لا ينبغي لهم أن يستعملوا الخطاب العادي في حضوره. ولم يقتصر على فرض الممارسات الجيدة المطلوبة بشكل عامٍّ، مثل منع دخول منزله دون استئذان، بل حاول وضع رسم على من أراد الدخول عليه، وهو عبارة عن صدقة طوعية تصرف في الصالح العام، ومن المرجَّح أنه فعل ذلك ليقلِّل من ازدحام المتسوِّلين المزعجين[1]. يعدُّ هذا الحكم الذي أعقبه

=من حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه بنحوه.

(١) هذا الاحتمال لا يرجحه شيء من المرويات التاريخية، بل الظاهر منها ومن سياق الآيات في سورة المجادلة (الآية ٨ وما بعدها) أن المسألة متعلقة بنفس النجوى وآدابها، وقد ذكر الماوردي في تفسيره: النكت والعيون ٥/ ٤٩٣، (دار الكتب العلمية، بيروت) عن الحسن البصري رحمه الله: أنه كان قوم من المسلمين يستخلون النبيَّ ﷺ ويناجونه، فظنَّ بهم قوم من المسلمين أنهم ينتقصونهم في النجوى، فشق عليهم ذلك، فأمرهم الله تعالى بالصدقة عند النجوى ليقطعهم عن استخلائه. وأخرج ابن جرير الطبري في تفسيره ٢٣/ ٢٤٩: عن ابن عباس في قوله: ﴿**فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً**﴾؛ قال: وذاك أن المسلمين أكثروا=

بشكل مباشر نسخُ الأمر من أشدِّ المسائل غرابةً في القرآن: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ [المجادلة: ١٢]، ويأتي عقب هذا مباشرة: ﴿ ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ ﴾ [المجادلة: ١٣]. هذا ـ كما نرى ـ تراجع مشين إلى حدٍّ ما. من له الاحترام المصون ويجرأ على مثل هذا التصرف البهلواني يجب أن يكون قد امتلك ثقة جيدة وكبيرة جدًّا لدى المؤمنين به. الشروح العربية تحكي أن هذا الحكم كان ساريًّا لساعة واحدة فقط، أو لعشرة أيام، وهذا هو الأظهر. لم يكن عند الفقراء ما يقدِّمونه، والأغنياء لم يرغبوا في تقديم شيء، لهذا امتنع الجميع من طلب الحديث مع النبي. لقد كان عليٌّ يفتخر بأنه كان الشخص الوحيد الذي نفَّذ الأمر، فقد أعطى درهمًا لكل مناجاة. حديث آخر يُظهر عليًّا في تصرفٍ أقل احترامًا. لقد سأله النبي عن رأيه فيما إذا كان الدينار مناسبًا؟ فقال: لا يطيقونه. قال: فبنصف دينار؟ قال: لا

---

=المسائل على رسول الله ﷺ، حتى شقوا عليه، فأراد الله أن يخفف عن نبيه؛ فلما قال ذلك صبر كثير من الناس، وكفوا عن المسألة، فأنزل الله بعد هذا: ﴿ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ فوسَّع الله عليهم، ولم يضيق.





يطيقونه. قال: فبكم؟ قال: بشعيرة. فقال النبي لعليٍّ: «**إنك لزهيدٌ**»[1]. على كلِّ حالٍ: المحاولات الصغيرة من هذا القبيل لسنِّ نوعٍ من المراسيم الرسمية لم تجذب العربَ الفطريين المحبين للحرية).

ثم قال أندريه: (كان السبب الذي دفع محمدًا إلى هذا التصرف ـ وهو إيجابيٌّ إلى حدٍّ كبيرٍ ـ رغبته في غرس الاحترام والانضباط، اللذين اشتدت الحاجةُ إليهما في ذلك الوقت بعدما جاءت حشود جديدة من الأتباع الذين لم تتأصَّل فيهم بعدُ بشكلٍ عميقٍ التبجيلُ اللازمُ لشخص النبي).

قلتُ: لا نحتاج إلى تكلف الردِّ على تحليلات أندريه المبنية على الظن والادعاء المجرد؛ فقد سارع بنفسه إلى نقضها بتعليقه هذا، فقد كان في ذلك الحكم ثم في نسخه حكمٌ ومقاصد جليلة، أدرك منها أندريه جانبًا ظاهريًّا محدودًا، فكيف بأهل العلم والإيمان؟

وأيضًا: فإن وضع ضوابط للاستئذان والدخول والمحادثة من الآداب العامة عند البشر تجاه كبرائهم وأمرائهم، بل حتى أمهاتهم وآبائهم؛ فكيف يجعل هذا التأديب للأَتْباع تجاهَ نبيِّهم ورسولهم ـ وهو أجلُّ قدرًا وأرفعُ منزلةً من سائر

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٠٠)، وقال الألباني في ضعيف سنن الترمذي: إسناده ضعيف.

الناس ـ محاولة لأجل وضع: (سياج شَرَفِيٍّ من المراسيم التي تدعم منصبه القيادي الجديد)؟!

وأيضًا: فإنَّ في هذا التأديب مصلحة عامة في ترسيخ القيم الأخلاقية في المجتمع، وبالتالي لا يمكن النظر إليه من خلال تعلقه بشخص النبي ﷺ فحسب، فالأخلاق والآداب التي ربَّى عليها النبي ﷺ أصحابه الكرام هي التي كوَّنت ـ مِن بعدُ ـ ملامح المجتمع الإسلامي بمعاييره وقيمه وخصوصياته.

٥ – ويصرُّ أندريه على إخضاع الحقائق التاريخية لاحتمالات النظرية النفسية فيقول: (الأصالة والجديَّة في تديُّن محمد، والإخلاص في إيمانه بدعوته الدينيَّة؛ كلُّ ذلك واضح لا جدالَ فيه، لكن للأسف لا يمكن القول أن الصراحة والنزاهة كانت من السِّمات الأكثر وضوحًا في شخصيته بشكل عام؛ لقد طرحنا أمثلة من قبيل سريَّة النَّخلة[1]، وقتل كعب بن الأشرف[2]، وهناك

(١) هي سريَّة عبد الله بن جحش رضي الله عنه الذي أمره النبي ﷺ أن ينزل بأصحابه نخلةَ ـ موضع بين مكة والطائف ـ، فوقع منهم مبادرة إلى قتال بعض المشركين في آخر يوم من شهر الله المحرَّم: رجب، فلما رجعوا إلى المدينة قال لهم رسول الله ﷺ: (ما أمرتكم بقتالٍ في الشهر الحرام). ثم نزل قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ﴾ [البقرة: ٢١٧].

(٢) وقع هنا في أصل المؤلف، وفي الطبعات اللاحقة: (كعب بن زهير)، وهو سبق قلم منه.

حالات مشابهة في بعض الأحيان تكشف بوضوح رغبةً في المكر والنفاق، مثيرةً للاشمئزاز).

قلتُ: عجبٌ أمرُ أندريه؛ يثبت أولاً الأصالة والجدية والإخلاص لمحمد ﷺ، ويثبت له أيضًا ـ كما سبق ـ استقامة سلوكه ومحافظته على قيمه حتى في العهد المدني؛ ثم يريد أن ينقض ذلك كلَّه بمثالين أو ثلاثة أو أربعة لم تقع إلا: (في بعض الأحيان)، ولم يظفر بها أندريه إلا بعد التَّقميش الشديد؛ ومع ذلك يريد أن يحمل تلك الوقائع على أسوإِ الوجوه ليجزم بعد ذلك أن النبي ﷺ كان يعاني من رغبة في المكر والخداع. وهذا من أندريه بغيٌ وتجنٍّ، لأن حكم البديهة العقلية في هذه الصورة يقضي بترجيح الاحتمال الجزئي الذي يوافق الحكم الكلي. والحكم الكلي ـ بإقرار أندريه ـ هو إثبات المصداقية والنزاهة والاستقامة له ﷺ، فإذا وردت في الواقعة المعيَّنة عدة احتمالات، ولا سبيل إلى الترجيح بينها إلا بالرجوع إلى الأصل الثابت والحالة الراتبة المستقرة؛ فالواجب حينئذٍ ترجيح الوجه الموافق للأصل الذي هو موضع اتفاق. وفي ضوء هذا التقرير العقلي يمكننا أن نفهم حادثة سرية عبد الله بن جحش ومقتل كعب بن الأشرف.

أما سرية النخلة؛ فقد أطال أندريه البحث فيها في الفصل السادس من

كتابه، ووجد فيها فرصته للانتقال مـن البحـث التـاريخي إلى التحليـل النفـسي. والأمر أيسر مما تكلَّفه، فعدم موافقة رسول الله ﷺ عـلى مـا فعلـه عبـد الله بـن جحش وأصحابه من القتال في الشهر الحرام؛ لا بدَّ أن يحمل على الأمـر الراتـب المعروف من حال النبي ﷺ، حيث كان يتوقـف في الأمـر حتَّـى يأتيـه الـوحي بحكم الله فيه، وكان أحيانًا يجتهد فيأتي الوحي بما يخـالف اجتهـاده، وربـما جـاء الوحي بمعاتبته أحيانًا ـ وهذه الحالات لها أمثلة كثيرة جدًّا لم تكـن لتخفـى عـلى مثل أندريه ـ؛ فموقفه في قصة سرية النخلة من هذا القبيل، فهو في الحقيقـة يـدل على صدقه وأصالته وإخلاصه؛ لأنه تصرَّف في تلك اللحظـة وفـق المبـدأ العـام السائد في منع القتال في الأشهر الحرم بإطلاق، وكان بإمكانه إن يبادر إلى تقـديم تسويغٍ لفعل أصحابه بوضع تشريعٍ جديد، ولكنه لم يفعـل ذلـك، وكـان نتيجـة ذلك أن جاء الوحي مخالفًا لاجتهاده، لكن أندريه لا يـؤمن بـالوحي المحمـدي، ولا يرضى أن يعرض الوقائع التاريخيـة كـما وردت ـ ليـترك لأصـحاب العقـول الصحيحة والفطر السليمة فرصة التفكير في صحة مثل هذا التصرف من أولئك النفر من الصحابة ضدَّ الذين عادوهم وآذوهم وأخرجـوهم مـن ديـارهم ظلـمًا وعدوانًا ـ؛ لهذا يعمد إلى تفسير الواقعة في ضـوء تحليـل نفـسي لا يـستند إلى أي منطق عقلي أو علمي، بل إلى ظنون وتوهمات يطلقها رجمًا بالغيب، فلنستمع إليه





وهو يحاول ـ بزعمه ـ الدفاع عن النبي ﷺ بعد أن رماه بتلك العظيمة: (على أنَّ التحليل لأخلاقيات محمد يُظهر بشكل كبير ما يمكن ـ وما يجب ـ أن يقال دفاعًا عنه. يعتقد أنه قد سيطرت عليه منذ أول نشأته حياء طبيعي، ليس من غير المألوف عند هذا النَّوع الانطوائي[1].

إنَّ هذا النوع يمتلك غالبًا مخيَّلة غنية ومتقدمة، وحياة عاطفية، ولكنه يعاني من بعض الخوف من الفعل. هذا الحياء ليس مثل ضعف الشخصية وضعف الإرادة، وليس له صلة بمرض شلل الإرادة للفعل. على العكس من ذلك؛ يمكن للأشخاص من هذا النوع أن يمتلكوا موهبة هائلة، وقدرة هائلة على الثبات في تنفيذ مقاصده بمثابرة وعناد وعدم خضوع للعواقب. محمد الذي هاجم وثنية ومادية قومه من غير أدنى شكٍّ ولا تردُّدٍ في رسالته؛ يبدو حقًّا أنه عانى من بعض الارتباك الداخلي في العلاقات الشخصية: أن يدفع النَّاس

---

(١) لا نجد في سيرته الشريفة ﷺ أي سلوك يمكن أن يدعم هذا الزعم الباطل، فقد عاش محمد ﷺ بين قومه كسائر الناس، تربَّى في أحضانهم وشاركهم في حياتهم اليومية، وربطه بهم صداقات وصلات، ودخل معهم في التجارة، وتزوَّج وأنجب، ولم يكن ابتداؤه بالخلاء في غار حراء إلا قبل بعثته بزمنٍ يسيرٍ، كما ثبت في حديث بدء الوحي في صحيح الإمام البخاري (٤).

المقبلين عليه، أن يقول: لا، أن يدخل فيما يريده بشكل مباشر وصريح[1]. مثل باول الذي كان قويًّا وبليغًا في كلماته، لكنه وجوده المادي كان ضعيفًا. نحن نرى كيف أن البدو غير المتربِّين يتدافعون على رسول الله عند توزيع الصدقات، يصيحون، وينادون، إلى درجة أنهم يسحبون ثوبه، مما حمل عمر على تهديدهم بسوطه ليحملهم على احترام رسول الله.

**«تهجم أحدهم مرةً في حضور النبي على أبي بكر بسبٍّ قادح، وبقي محمد صامتًا، وعندما بدأ أبو بكر بالردِّ انصرف محمدٌ من المكان، وعندما سأله أبو بكر في وقتٍ لاحقٍ عن سبب ذلك، أوضحَ له أنَّ جبريل كان ما زال يُكذِّبُه، لكن عندما بدأ أبو بكر بالدفاع عن نفسه انصرف المَلَكُ عنه»**[2].

(١) يعرض أندريه صفات نبيلة مثل: (الحياء) و(الكرم) و(السماحة) و(الجود)؛ في سياق يربطه بظواهر نفسيَّة، ثم يقوم بتحليلها وفقًا لأهوائه الشخصية. إن أندريه هو الطرف الوحيد في هذه المحاججة الذي يحتاج إلى تحليل ومعالجة نفسية!

(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٤٨٩٦)، وضعَّفه الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب (١٦٣٩). وقد ساقه أندريه بمعناه، وهذا الاستشهاد ـ بغض النظر عن ضعف الحديث ـ لا يدعم رأيه، لأن الذي ردَّ هو أبو بكرٍ، فلم يرغب النبي ﷺ في ذلك أخذًا بالأعلى والأحسن في مثل هذا الموقف، ولو كان الأمر كما يريد أندريه أن يصوِّره؛ لشجَّع النبيُّ أبا بكرٍ ـ سرًّا! ـ على الردِّ، والتزم هو الصمت! وحاشاه ﷺ من هذه الأخلاق الذميمة.





رواية أخرى ـ ليست أقلَّ أهميةً ـ تحكي **«كيف أن عائشة لامت النبيَّ لأنه تكلم بسلبية بالغة عن أحد الأشخاص، وبعد ذلك مباشرة دخل عليه ذلك الشخص فاستقبله بلطفٍ خاصٍّ»**[1].

الشخص الذي يفتقر إلى القدرة الطبيعية القوية والصريحة يضطرُّ بسهولة

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح (٦٠٣٢)، ومسلم (٢٥٩١) عن عائشة: أن رجلاً استأذن على النبي ﷺ فقال: **«ائذنوا له فلبئس ابن العشيرة»** أو: **«بئس رجل العشيرة»**، فلما دخل عليه ألان له القول، قالت عائشة: فقلت: يا رسول الله قلتَ له الذي قلتَ، ثم ألنت له القول؟ قال: **«يا عائشة! إنَّ شرَّ الناس منزلةً عند الله يوم القيامة من ودعه أو تركه الناس اتِّقاء فحشه»**.

وقد ذكر العلماء ما يبيِّن الحكمة من هذا الحديث: نقل النووي في شرح صحيح مسلم (٢٥٩١)، عن القاضي عياض، قال: **«هذا الرجل هو عيينة بن حصن، ولم يكن أسلم حينئذ، وإن كان قد أظهر الإسلام، فأراد النبي ﷺ أن يبيِّن حاله ليعرفه الناس، ولا يغتر به من لم يعرف حاله. وكان منه في حياة النبي ﷺ وبعده ما دلَّ على ضعف إيمانه، وارتدَّ مع المرتدين، وجيء به أسيرًا إلى أبي بكر ﷺ، ووصف النبي ﷺ له بأنه بئس أخو العشيرة من أعلام النبوة، لأنه ظهر كما وصف، وإنما ألان له القول تألفًا له ولأمثاله على الإسلام»**.

وفي هذا الحديث مداراة من يتقَّى فحشه، وجواز غيبة الفاسق المعلن فسقه، ومن يحتاج الناس إلى التحذير منه. ولم يمدحه النبي ﷺ، ولا ذُكر أنه أثنى عليه في وجهه، ولا في قفاه، إنما تألفه بشيء من الدنيا، مع لين الكلام.

أن يتخذ لتنفيذ إرادته طرقًا ملتوية، ويستخدم المكر والنفاق. إن الطيبة الرائعة، واللطف، وإرادة الخير، صبغت ـ وفقًا لتراث الإسلام ـ شخصيةَ النبي: «**كان إذا لقي الرجلَ فكلَّمه لم يصرف وجهه عنه حتى يكون هو الذي ينصرف، وإذا صافحه لم ينزع يده من يده حتى يكون هو الذي ينزعها**»[1]، ولم يكلمه أحد أحمر كان أو أسودَ ـ عربيًّا أو أعجميًّا ـ إلا وأجابه[2]. وكان يأخذ في كثير من الأحيان تمرةً ساقطة فيضعها في فمه؛ لأنه كان يفكر حينئذٍ أنها يمكن أن تكون هديةً، فلم يكن يحبُّ أن يجرح مشاعر من أهداها[3]. وكان يسلم على الجميع حتى على العبيد والأطفال. عندما سئلت عائشة كيف كان النبي إذا خلا في بيته؟؛ أجابت: «**كان ألين الناس، وأكرم الناس، وكان رجلاً من رجالكم إلا أنه كان ضحَّاكًا بسَّامًا**»[4].

---

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن (٣٧١٦)، والترمذي في الجامع (٢٤٩٠).

(٢) طبقات ابن سعد ١/ ٢٧٠، وإسناده مرسل.

(٣) لم أجد هذا، وإنما المعروف ما أخرجه البخاري في الصحيح (٢٤٣٣)، ومسلم في الصحيح (١٠٧١) عن أبي هريرة رضي الله عنه: عن النبي ﷺ قال: «**إنِّي لأنقلب إلى أهلي، فأجد التمرة ساقطةً على فراشي، فأرفعها لآكلها، ثم أخشى أن تكون صدقةً فألقيها**». وهذا في طبقات ابن سعد ضمن الحديث السابق، فالظاهر أن أندريه أخطأ في فهمه.

(٤) طبقات ابن سعد ١/ ٢٧٤.





ومن المؤكد أنه ليس من قبيل المصادفة، أن مصادرنا كثيرًا ما تتحدث عن هذه الابتسامة التي لا يقاوم....)[1].

ثم قال أندريه: (يشهد لنفس الخصائص ميله الشديد للتنازل بالقدر الممكن عن القوانين والضوابط التي وضعها بنفسه. لا يتوقف تنازله على ضعف إرادته وإنما على صعوبة طبيعية في مواجهة مظاهر التذمر وعدم الرضى. الرغبة الواضحة في الحصول على الشعبية والاحتفاء والمحبة هي ضعف يبدو أن له علاقة مع الموهبة الملهمة. المتنبؤون عندهم هذا التوافق مع الفنانين والشعراء، وتحليل هذه الرغبة لا يُظهر بالطبع معدنًا أخلاقيًّا نفيسًا. هذا الصِّنف من النفوس ليس في حلٍّ من بعض الميل إلى إهمال الصداقة والمودة التي حصلت عليها سابقًا، ومن البحث باستمرار وجدٍّ عن فتوحات جديدة، والإهمال واللامبالاة لأفضل الأصدقاء مع شيء من المودة الخفيفة للأعداء. ويبرُزُ في الجانب الإيجابي لهذا السلوك: الحاجةُ الاجتماعية القوية له، والرغبة في التوافق الشخصي، والمودة التلقائية، ولين الجانب. لهذا يمكن القول دفاعًا عن محمد أن جزءاً من لباقته المنتقَدة متوقف على اضطرار فطري إلى إخفاء عدم الرغبة وعدم الرضى تحت قناع من اللطف.

---

(١) وأوردتُ باقي كلامه فيما تقدم.

وأخيرًا: ينبغي أن لا ننسى أن اللعبة السياسية الآن مرة أخرى من هذا القبيل، حيث يبدو بوضوح أنها تحتاج إلى درجة من الكمال في فن اللباقة. (الذي يستطيع إخفاء أفكاره قد أدرك أن الحكم يخضع لهذا المعيار) كما يصف آِئنيا سِلْفيو القيصر سيكيسموند. لقد استطاع محمد بسيطرته على ذاته أن يثبت أيضًا شرطًا طبيعيًّا حتى يصبح سياسيًّا مهمًّا وفاعلاً).

قلتُ: هذا كله كلام أندريه، وقد أطلت بنقله ـ كما فعلتُ بكلامه السابق في التحليل النفسي ـ ليتمكن القارئ من أخذ فكرة تامة عن هذه الطريقة العوجاء العرجاء في الحكم على بواطن النفوس والأمور التي وقعت قبل أربعة عشر قرنًا، وقد ذكرتُ الرد عليها فيما سبقت، والمقصود هنا: أن شغف أندريه بالتحليل النفسي هو الذي حمله على تفسير ما حدث في سريَّة النخلة على أسوأ وجهٍ، وكذلك استشهاده بقصة مقتل كعب بن الأشرف، وهو ما تطرق إليه في الفصل السادس أيضًا، أثناء كلامه في حكم النبي ﷺ في المدينة، فأطال الكلام وبسطه؛ ليثبت أن هذا الحدث يدل على خلل في سلوك النبي ﷺ يرجع إلى تكوينه الشخصي، وهو ما شرحه في كلامه أعلاه.

لا نحتاج إلى الدفاع عن النبي ﷺ لأمره بعض الصحابة باغتيال كعب ابن الأشرف، فالأمر أيسر من ذلك؛ فقد كان ابن الأشرف يهوديًّا حليفًا ليهود





بني النضير، وكان بينهم وبين النبي ﷺ عهد، لكن ابن الأشرف نقض العهد، وسافر إلى مكة بعد انتصار المسلمين في بدرٍ؛ يهجو النبي ﷺ، ويحرض قريشًا على الثأر لقتلاهم، ثم عاد إلى المدينة ليعلن عداوته ويجهر بالسوء من القول حتَّى بلغت به الجرأة إلى التشبب بأم الفضل بنت الحارث رضي الله عنها زوجة العبَّاس عم النبي ﷺ. فلما بالغ في الهجاء والإساءة والتحريض؛ قال النبي ﷺ: «**مَن لكعب بن الأشرف؛ فإنه آذى الله ورسوله؟**» فاستأذنه محمد بن مسلمة وأبو نائلة في قتله، فأذن لهم، فقاموا بتدبير أمر اغتياله[1].

ولندع أندريه يدافع عن موقف النبي ﷺ ـ على عادته في إيراد الشبهات ثم نقضها من بعض الوجوه ـ: (بعد غزوة بدر سافر كعب بن الأشرف إلى مكة، وحاول هناك من خلال شعره في الهجاء البالغ أن يحرض قريشًا على الانتقام. كان محمد ـ مثل سائر قومه عمومًا ـ ذو تأثر بالغ جدًّا بشعر الهجاء، ولم يكن ينسى الإهانات بسهولة...).

وقال: (ينبغي علينا أن لا ننسى أن شعر الهجاء السياسي في الجزيرة العربية في ذلك الوقت؛ كان سلاحًا فعالاً جدًّا).

(١) القصة في صحيح البخاري (٤٠٣٧)، وصحيح مسلم (١٨٠١).

إذن قد سلك ابن الأشرف أخطر طرق الحرب، فقاده إلى نهاية قد كان في سلامةٍ منها لو أنه التزم بعهد قومه ـ بني النضير ـ مع المسلمين في المدينة. فتصرف النبي ﷺ يأتي في سياق الحرب والصراع، حيث يبادر القائد إلى القيام بمسؤولياته في المحافظة على كيان الأمة ووحدتها وهيبتها، فيقطع الطريق على أهل الغدر والخيانة والتحريض والتشويش.

إنَّه ليس من الصدق والإخلاص والاستقامة أن يتحكَّم التردُّد والضعف في صاحب القرار والقيادة، فيعمد إلى اللين والمسالمة عندما يقتضي الموقف الحزم والمواجهة لقطع دابر الشرِّ.

بل إن من كمال شخصية النبيِّ ﷺ ومصداقيتها وسلامتها من الخلل والعيب قدرته الفريدة على المبادرة إلى التصرُّف بما يناسب الزمان والمكان والأحوال والأشخاص، فيضع كلاًّ من الرحمة والعفو والرفق واللين والصبر والسماحة في مواضعها، كما يضع كلاًّ من العقوبة والشدَّة والتَّعنيف والتنكيل والمعاملة بالمثل في مواضعها.

فلا يحمله الرفق والرحمة على تضييع الحقِّ والخنوع للأعداء والجبن عن المواجهة والمنازلة، ولا تدفعه الحماسة في نصرة الدين وإعلاء كلمة الله تعالى إلى الظلم والبغي والعدوان.





وهذا آخر ما تيسر إيراده في التعريف بكتاب: (محمد حياته وعقيدته)، واستعراض مادة الفصل الأخير منه حول شخصية النبي ﷺ، مع المناقشة والنقد والتحليل.

* * *

# الخاتمة

**النتائج والتوصيات:**

١. أهمية الكتاب من جهة انتشاره وتداوله حيث وقف الباحث على أكثر من عشرين طبعة بست لغات أوربية؛ مما يؤثر بشكل بالغ في تصورات الأوربيين عن نبي الإسلام.

٢. إن من محاسن الكتاب اعتماده على المصادر الإسلامية الأصلية، ومحاولة تقديم تقييم منصف وعادل، وتأكيد المؤلف على جملة من المفاهيم الأساسية الصحيحة عن شخصية النبي ﷺ.

٣. إن عدم إيمان المؤلف بالرسالة الإسلامية أوقعه في كثير من الأخطاء والمغالطات المنهجية والتفصيلية. وهذا إشكال عام لدى عامة المستشرقين غير المسلمين.

٤. تحكُّم نظرية التحليل النفسي للدين في آراء المؤلف في جميع مباحث الكتاب، فهي القاعدة الكلية لمنهجه في التعليل والتفسير والنقد.

٥. وأخيرًا: يوصي الباحث بترجمة الكتاب إلى اللغة العربية، ودراسة

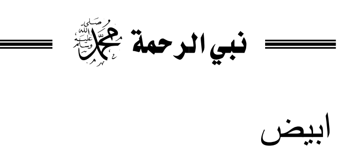




مواده، والجواب عن شبهاته، والكشف عن أباطليه ومغالطاته. ثم ترجمته مع تلك الدراسة إلى اللغتين الإنكليزية والفرنسية، ومحاولة نشره عن طريق بعض دور النشر الغربية، ليكون بديلاً عن النسخة السابقة.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

* * *



ابيض